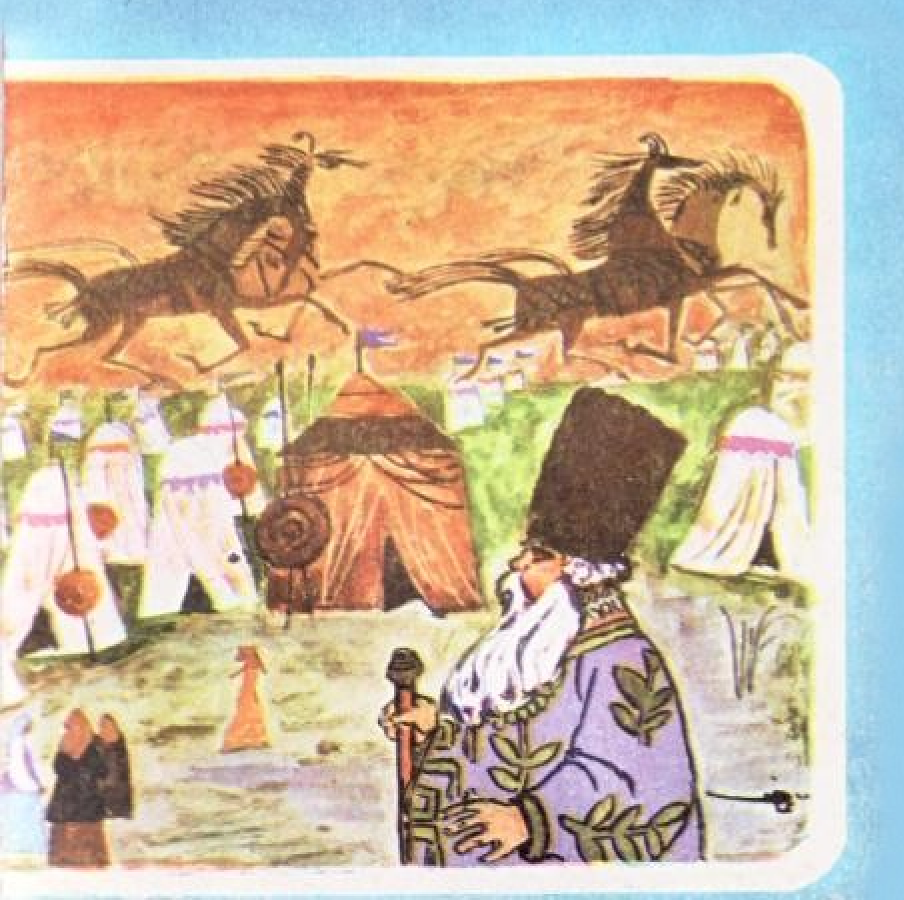
روايات الهلال

الحاج مراد

تولستوي







تولستوى



مجد الدين حفنى ناصف

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركى

مقدمة

مؤلف هذه القصة ليو تولستوى (١٨٨٢ ـ ١٩١٠) شيخ كتاب روسيا حتى أوائل القرن العشرين . وقد نحا نحوا جريئا فى التحرر حتى ذهب الى الغاء الجنسيات والحدود وفوارق الأديان ودعا الى العود الى حب الله وفقا للبساطة الأولى التى شرعتها الأديان . وجاهر فى روسيا ـ حامية الأورثوذكسية الى ما قبل الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ ـ بالثناء على (رسول الله صلى الله عليه وسلم) وتحبيذ بعض أصول الشريعة الاسلامية ، كما نعى على الغربيين كثيرا من عاداتهم كالرقص والميسر وشرب الخمر . وقد رفعه ملايين من الناس الى مصاف الأنبياء ، واحسن رثاءه فى مصر احمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، واحمد لطفى السيد .

وكان يكتب بالسهولة وابراز الحقائق اللذين يتميز بهما الأدب الروسى ، ويبدو انه تأثر اول الأمر بجان جاك روسو وشوبنهاور . ومن اشهر مؤلفاته : « الحرب والسلام ـ أنا كارنينا ـ سوناتة كرويتسر ـ البعث ـ الرفات الحى » .

ومنها « الحاج مراد » هذه . وهذه قصة واقعية شهد بعض حوادثها وتخيل سائرها . وقد نوه فيها بمسلمى القوقاز الذين هبوا يناهضون الاستبداد الروسى والطغيان القيصرى باستخفاف الحكام وبعثرتهم اموال الدولة على ملاذهم على حين يتضور ابناء الشعب من كلب المسغبة . هب المسلمون اذ ذاك وعلى راسهم « المريدية » وهى مذهب كالصوفية انتشر فى القرن الثالث للهجرة ونادى بالفضائل الاسلامية الأصيلة كالتضحية ذيادا عن الدين والوطن والانسانية وكالمساواة بين الفقراء والأغنياء والتجرد عن المطامع والشهوات حتى فى الآخرة وذلك كى يحسن توجيه الناس الى الله . ثم رد المؤلف اخفاق المسلمين فى تلك الفترة الى تفرق الزعماء وأنانيتهم وان هو قد مجد الصمود والتفانى فى سبيل ما يحسبه كل انسان مثله الأعلى .

هذا على الإيجاز . وقد تفضل الصديق الأستاذ على أدهم ــ وقد راجع الترجمة ــ ببسط القول مشكورا فى مخلص القصة ومنزلتها بين القصص العالمية الملحوظة .

مجد الدين حفنى ناصف

تقديم

ليو تولستوى فى طليعة الكتاب الروسيين ، وعلم من اعلام الادب العالمى ، وقد عرفه قراء اللغة العربية منذ اوائل القرن العشرين بما اذيع من اخباره وما ترجم من آثاره ، وهو كاتب كثير الجوانب ، متعدد المواهب ، فهو روائى من الطراز الأول ، ومفكر اجتماعى ممتاز ومصلح دينى اصيل ، وباحث اخلاقى له وزنه ، ويكاد ينعقد اجماع نقاده ودارسى كتبه على ان الناحية الفنية فى تولستوى هى اهم نواحيه واسماها ، وقد نجد نظراء لتولستوى المفكر أو تولستوى المصلح وناقد المجتمع ، ولكن تولستوى الفنان قليل النظير نادر المثال .

وقصة الحاج مراد التى اقدمها للقراء ليست من مؤلفاته الضخمة الواسعة الآفاق الحافلة بمختلف الشخصيات ، ولا من طرفه الفنية الذائعة الصيت التى رفعت من قدر الادب الروسى مثل « الحرب والسلام » و « انا كارنينا » و « البعث » ولكنها مع ذلك على ايجازها تعد من الناحية الفنية من انضج مؤلفاته واكثرها استيفاء لشرائط الفن واقربها الى الكمال ، وتتجلى فيها قدرة تولستوى المعجزة على السرد السهل المتدفق الذى يبلغ غايته من اقرب الطرق وايسرها وبراعته فى تصوير المشاهد وخصائص شخصيات القصة بلمسات سريعة بسيطة واشارات موحية نفاذة ، وهو يبدأ فى وصف الشخصيات بابراز الخصائص البدنية والملامح البادية الدالة على نوع الشخصية ويتبع ذلك بالحديث عن الصفات الروحية ، والمزايا ذلك بالحديث عن الصفات الروحية ، والمزايا النفسية ، والسمات الاخلاقية ، فتتكشف لك حقيقة الشخصيات التى تقرأ عنها ، وتتمثل لخيالك ، وتكاد تقع عليها عينيك ، وتلمسها يدك ، ولا ترى بأسا فى الحاقها بسجل من عاشرت من الناس وبلوت اخلاقهم وعرفت طبائعهم ، ومما جعل لهذه القصة مكانة ممتازة بين آثار

تولستوى الفنية أن تولستوى المفكر او تولستوى الواعظ الاخلاقى قليل الظهور بين سطورها ، فهى من النـاحية الموضوعية البحتة والفنية الخالصة فى طليعة قصصه ورواياته .

وهذه القصة من آثاره الأدبية التى طبعت بعد موته ، وقد روى لنا صديقه وناقل مؤلفاته الى اللغة الانجليزية الماير مود هـذه الرواية ، قال : سألت تولستوى قبل وفاته بسنة : ما هى مؤلفاتك غير المطبوعة التى تعدها ذات قيمة ؟ فأجابه تولستوى : « الحاج مراد والجثة الحية ليس غير » وقد اتم كتابتها وهو فى الرابعة بعد السبعين من عمره ، ومع حسن ظنه بها لم يقدمهـا للطبع لأن كل ما كان يقدمه للطبع فى الثلاثين السنة الأخيرة من حياته كان يزيد ازمة حياته العائلية شدة وتوترا ، فقد كان الرجل زاهدا فى المحافظة على حقوق الطبع وكانت زوجته ـ على خلافه ـ شديدة الحرص على هذه الحقوق ، وكان اختلاف وجهة نظريهما فى هذا الموضوع مثار شقاق دائم وصراع عنيف .

وتمتـاز القصة بأنها توضح الفرق بين حيـاة الروسيين من ضباط وجنود وكبار موظفين وحياة القوقازيين الجبليين المطبوعين على حب المغامرة والاستهانة بالصعاب . فالفتى الدار ـ أحد أتباع الحاج مراد ـ وهو فى موقف يثير الخوف ويبعث على اليأس وانثلام العزم ، لا تلين قناته ، ولا تفتر همته ، ويضيق صدره لأن رئيسه الحاج مرادا لم يأمر بالتقدم لملاقاة الأعداء الذين يفوقون فريقه عدة وعديدا .

والحاج مراد بطل القصة رجل مقدام غير هياب ، وفارس مغوار ومحارب صنديد كرار ، يموت فى آخر القصة ميتة جديرة بأن يقول أبو تمام فى مثل صاحبها :

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة

تقوم مقـام النصر ان فاته النصر

وقد عاش تولستوى فى بلاد القوقاز حينا من الزمن ، وخبر أحوال اهلها ، وعرف اسلوب حياتهم ، وانماط تفكيرهم ، ولقى الحاج مرادا نفسه فى تفليس سنة ١٨٥١ ، وكان تولستوى قد ذهب الى القوقاز فى ذلك الوقت ليؤدى امتحان صف ضباط الجيش ، ومن هناك كتب

الى أخيه سرجى يقـول : « اذا كنت تحرص على اجتذاب الأنظار بأخبار عن القـوقاز ففى وسعك ان تذكر أن من يدعى الحـاج مراد (وهو التالى فى الاهمية لشامل نفسه) قد استسلم منذ ايام قلائل للحكومة الروسية ، وقد كان زعيم الشجعان والشياطين المردة فى بلاد الشراكسة ، ولكنه سيق الى ارتكاب عمل دنىء » .

وكانت روسيا قد اخذت فى اخضاع بلاد القوقاز وبسط سلطانها على اهلهـا . وكان ما بين اهلها من منازعات وأحقاد وترات يحول دون وقوفهم صفا واحدا فى وجه التقـدم الروسى ، ولـكن أدغال شيشنيا وأجبال داغستان وآجامها كانت تجعل استيلاء الروسيين على هذه الانحـاء عملا شاقا ، وكانت قد قامت فى تلك البلاد حركة دينية اسلامية صوفية النزعة ترمى الى عدم التفرقة بين الأغنياء والفقراء ، وتحض على الزهد فى طيبات الحياة ، وتوصى بالتقشف وانكار الذات وتحرير النفوس من اسر الأهواء واللبانات ، وهى حركة المريدين ، وكان الذى يلقن الناس مبادىء المذهب يسمى المرشـد ، وأتباعه هم المريدين .

وفى سنة ١٧٨٥ ظهر زعيم مجهول الأصل اسمه منصور فى بلاد القوقاز واستنفر الناس الى محاربة الروسيين واعلان الحرب الدينية وابتداءا من سنة ١٨٣٠ قاد سكان القوقاز الى الحرب قاضى موللا وهو اول امام من ائمة المريدين جمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية وتحولت حركة المريدين الى محاولة قومية للابقـاء على استقلال القوقاز والاشتباك فى حرب ضروس مع الروسيين ، وكان شامل الذى خلف حمزة اعظم ائمة المريدين ، وأبعدهم شهرة ، وهو من الأشخاص البارزين فى قصة الحاج مراد .

وقد ولد شامل فى سنة ١٧٩٧ وتلقى العلم على استاذه الموللا جمال الدين وقـام بدور رئيسى فى اعلان الحـرب الدينية على الروسيين ، وكان الزعيم الروحى والقائد الحربى للقبائل التى ظلت تحارب الروسيين من سنة ١٨٣٤ حتى سنة ١٨٥٩ ، وقد أتعب شامل الروسيين كثيرا وكبدهم خسائر جمة ، وحالفه الانجليز والفرنسيون فى خلال حرب القرم التى امتدت من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٦ ، وقد نال شامل شهرة أوربية واسعة ، ولكن قـدرة

قبائل القوقاز على المقاومة اخذت تتناقص ، واستطاع الروسيون بعد انتهاء حرب القرم أن يوجهوا قوات كثيرة الى القوقاز للاستعانة بها على اخضاعه ، وانتهت مقاومة قبائل القوقاز بالقبض على شامل فى سنة ١٨٥٩ ، وقد قضى بقية أيامه اسـيرا فى كالوجا وسان بطرسبرج وكييف ، ومات فى مكة حاجا سنة ١٨٧١ ، والتحق أحد أبنائه بخـدمة الجيش الروسى ودخل ابنه الآخر فى صفوف الجيش التركى .

والظاهر أن حركة المريدين الصوفية الدينية والسياسية القومية لم تستطع أن تمحو الأحقـاد والأحن والضغائن من قلوب هؤلاء الجبليين الجبابرة العتاة وعجزت عن كبح نزواتهم ، والارتفاع بهم فوق الخلافات والأهواء والشهوات ، وفى القصة اشارات مجملة عن أسباب وقوع الخلاف بين الزعيم شامل والبطل المقـدام الحاج مراد ، ومهما كانت الأسباب التى دعت الى قيام هذا الخلاف فانه كان من بواعث اضعاف مقاومة القبائل القوقازية وتغلب الروسيين فى النهاية .

ولا يفوتنى قبل أن أختم هـذه الـكلمة ان استرعى النظر الى الصورة الباهرة الدقيقة الصادقة التى قدمها لنا تولستوى عن اخلاق القيصر الطاغية المستبد نقولا الأول وملكاته وتصرفاته وهو الذى حكم روسيا بيد من حديد سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٥٥ وسار على خطة أبيه القيصر بول الذى يروى عنه انه قال للسفير الفرنسى حينما سمع منه أن رجلا له أهمية فى روسيا معنى بامر من الامور فاستشاط القيصر غضبا وقال للسـفير فى حدة : « ليس فى امبراطوريتى رجل له أهمية الا الرجل الذى قد يتفق ان اتحدث اليه ، وأهميته تظل طوال المدة التى أوجه اليه فيها الحديث » .

وقد بلغ الطغيـان القيصرى ذروته فى عهد القيصر نقولا الأول ، ولم يخـدع تولستوى بمـا أسبغه المتملقون والوصوليون على هـذا القيصر المستبد من أوصاف العظمة والجلال ، ونفذ الى دخيلته ، وفطن لحقيقته .

وكشفه لنا رجلا دعيـا مزهوا بنفسه متعجرفا عبـدا لشهواته متناقض الافعال والاقوال ، ينسب الى نفسه ما ليس له ، ويتبرأ

من تبعة هفواته وخطل سياسته ، وقد كانت سياسة هذا القيصر من البواعث التى مهدت السبيل لحدوث الانقلاب الروسى الذى وقع فى سنة ١٩١٧ ، فقد اتبع خلفاؤه سياسته المدمرة ، وخطته العوجاء ، حتى جنو المر من ثمراتها ، وثل عرشهم ، وابيحت دماؤهم فى النهاية .

على ادهم

- ١ -

كنت عائدا الى منزلى بطريق الحقول ، وكان ذلك فى اواسط الصيف ، وقد انتهوا من حصــاد الدريس واخذوا توا يجنون الشيلم (١) وفى هذا الموسم من كل عام تزدهر طائفــة منوعة من الازهار : برسيم ذو خصائل احمر وابيض ووردى يزكو شذاه ، وعرار ناصع فى بياض اللبن ذو قلوب مصفرة مشرقة عطرية مستحبة وشلجم (٢) اصفر الزهر يفوح منه عبير كالشهد ، ونبات الاجراس الطويل ذو النواقيس البيضاء والبنفسجية الناصلة اللون الخزامية الهيئة ، والحمص الجبلى الزاحف والجلبــان (٣) الاصفر والأحمر والوردى ، وطلح (٤) أرجوانى متضــائل الشذى انيق التنسيق بزهره ذى الخضاب الوردى الحائل ، والترنشاة (٥) تكتسى براعمها الحديثة التفتح الأزرق اللامع فى ضــياء الشمس ويطرد شحوبها واحمرارها كلمــا اقترب الغروب أو كبرت سنها ، وزهور الكشوت (٦) التى اسرع اليها الذبول .

وعنــدما جمعت بنفسى باقة كبــيرة ، وكنت فى طريقى الى بيتى ابصرت فى حفرة نباتا من رأس القنفد (٧) كامل الازدهار فى الوان قرمزية متفاوتة ، وهو نبات يطلقون عليه فى المناطق المجاورة اسم « التتر » ويتنكبونه فى حــذر عند الحصــاد . واذا حدث انهم قطعوه اتقوا به بعيــدا عن الــكلا خشية ان ينخس ايديهم . وفكرت فى قطف هذا الحسك ورشقه وسط باقتى ، فنزلت الحفرة زاحفا وطردت نحلة طنــانة مخملية كانت قد تغلغلت الى داخل زهرة من

(١) الشيلم : حبوب تشبه الشعير .
(٢) الشلجم : نوع من اللفت الطليطلى .
(٣) الجلبى او الجلبان : نبات له زهر ذو قشرة .
(٤) الطلح : نوع من الموز أصله هندى او افريقى .
(٥) الترنشاه : زهر عنبرى الشذا .
(٦) الكشوت : نبات لا ورق له يلتف على الشوك والشجر .
(٧) رأس القنفد : نبات كثير الحسك او الشوك .

الزهرات وراحت هناك فى سبات لذيذ ، ثم اخذت أعمل على قطف الزهرة ، ولقيت فى ذلك عناء شديدا ، اذ لم تنخسنى ساقها من الصوب فحسب حتى من خــلال المنديل الذى لففت به يدى ، ولكن بلغ من صلابتها ان كان على أن اجاهدها قرابة دقائق خمس وانا افض اليافهــا الواحدة تلو الأخرى . حتى اذا ما اقتلعتها آخر الأمر كانت الساق كلهــا قد تهرات ، ولاح ان الزهرة نفسها عريت عن نضارتها وجمالهــا . وفضلا عن ذلك فانهــا ـ لخشونتها وتيبسها ـ لم يبد انها فى المكان اللائق بها بين ازاهير باقتى الرقيقة. فالقيت بها بعيدا وانا اشعر بالأسف على انى اتلفت دون طائل زهرة كانت تبدو جميلة فى المكان اللائق بها .

« ولــكن اية طاقة واى اصرار ! وباى عزم ذبت عن نفسها ! وباى ثمن غال باعت حياتها ! » فكرت فى هذا وانا اذكر الجهود التى جشمنى اياها اقتلاع الزهرة . وكان يقتضينى الطريق الى بيتى ان اعبر حقولا من الطين الأسود تم حرثهــا توا . فارتقيت السبيل المتربة وكانت الحقول المحروثة ملكا لأحد ملاك الأرض ، وكانت مترامية الأطراف حتى انه لم يكن هناك على جانبى وأمامى قمة الاكمة شىء ظاهر للعيان غير ارض ندية خددها المحراث تخديدا سويا . فقد حسن حرثها فلم ير فى أى مكان ضغث من حشيش ، او نبات أيا كان نوعه ، وعمها كلهــا السواد . « آها . اى مخلوق مخرب هذا الانسان . وكم من حياة نباتية منوعة يدمرها ليدعم كيانه هو ! » هكذا فكرت وانا أبحث حولى بحركة لا ارادية عن اى كائن حى فى هذا الحقل الأسود الذى لا حياة فيه . ورأيت أمامى الى يمين الطريق شيئا كالقرمة فلما دنوت منه ألفيته ذلك النوع من الحسك الذى كنت اقتلعته دون طائل والقيت به بعيدا . وكان لنبات « التتر » هذا ثلاثة فروع احدها مكسور ناتىء كعقب ذراع بتراء ، والآخران يحمل كل منهما زهرة كانت فى وقت ما حمراء واسودت الآن . وكانت احدى الســاقين مكسورة تدلى نصفها بزهرة متسخة فى راسها . وظلت الساق الثانية قائمة وان تلطخت هى الأخرى بالوحل الأسود . وجلى ان عجلة مركبة ثقل مرت على النبات ولــكنه نهض ثانية ، ولهذا ـ وان بقى قائما ـ انعقص ناحية كانما نزع منه جزء من جسمه واخرجت احشاؤه واجتثت ذراعه

واقتلعت احدى عينيه ، ولكنه مع هذا وقف ثابتا ولم يذعن للانسان الذى اهلك سائر اخوته من حوله ...

« اية حيوية ! لقــــــد قهر الانسان كل شىء واهلك الملايين من النباتات ولكن هذا النبات لم يذعن ! » هكذا فكرت ، واستطردت فتذكرت قصة وقعت فى القوقاز من سنوات خلت شهدت بعضها بنفسى وسمعت بعضها من شاهد عيان وتصورت ما بقى منها .

والقصة كما تشكلت فى ذاكرتى وخيالى هى :

وقعت فى أواخر ١٨٥١ .

فى احدى امسيات نوفمبر الباردة ركب الحاج مراد الى مخمت ، وهى (محلة) مناوئة فى ششنيا ، تبعـــد خمسة عشر ميلا عن الاصقاع الروسية مفعمة بالدخان المعطر (بالجلة) الموقدة . وكان المؤذن قد فرغ توا من انشاد اذانه بصوت مجتهد . ومن خـــلال جو الاكمة الصـــافى المشبع بدخان (الجلة) . ومن فـــوق خوار السوام وثغاء الاغنام التى كانت تتفرق فى (المحلات) (يزحم بعضها بعضا كخلايا الشهد) يسمع فى وضوح اصوات الرجال الحلقية وهم يتخاصمون ، وضجيج اصوات النسوة والاطفال يرتفع من جوار النبع الذى فى اسفل .

وكان هذا هو الحاج مراد نائب (شامل) وهو شهير بجولاته وصولاته . وقد اعتاد الا يخرج راكبا من دون بيرقه وعشرات من المريدين يحرسونه ويتظاهرون من امامه . ركب الان وقد تقلنس وتدثر ببردة برزت من تحتها بندقية ، آبقا لا يرافقه الا (مريد) واحد ، محاولا جهده الا يستلفت الانظار ، جائلا بعينيه السوداوين الحادتين فى وجوه من يلقاهم فى طريقه .

وعندما بلغ المحلة استدار بسرعة الى شارع جانبى ضيق — بدلا من ان يصعد بفرسه الى الميدان الطليق — فلما وصل الى الدارة الثانية المحفورة فى سفح الاكمة توقف وتلفت من حوله ، ولم يكن تحت السقيفة الامامية احد ، ولكن رقد على سطح الدارة نفسها — خلف المدخنة التى كسيت حديثا بالخزف رجل يلتف فرو ضأن . فلمسه الحاج مراد بمقبض سوطه الجلدى المضفر وفرقع بلسان السوط ،

فنهض من تحت فرد الضأن عجوز يلبس مشلحا (١) قديما ودكا (٢) وطاقية . ولم يكن لجفنيه المبللين الاحمرين اهداب فطرف ليزيل التصاقهما . وردد الحاج مراد التحية المألوفة « السلام عليكم ! » وكشف عن وجهه . فقـــال العجوز — وقد عرفه وابتسم بفمه الادرد : « وعليكم السلام ! » وما ان رفع نفسه على ساقيه النحيلتين حتى اخذ يدفع قدميه فى (القبقاب) الذى استقر الى جانب المدخنة ثم دس ذراعيه رويدا داخل فروته المجعدة ويمم السلم الخشبى المستند الى السقف ونزل وظهره الى الخارج . وفيما كان يلبس وينزل ظل يهز راسه فوق رقبته الرفيعة المتغضنة التى لوحتها الشمس يتمتم شيئا بفمه الادرد . ولم يكد يصل الى الارض حتى امسك فى ترحيب بشكيمة جواد الحاج مراد وركابه الايمن ، غير ان المريد القوى النشيط ترجل فى سرعة ، وهو يومىء الى العجوز بأن يتنحى جانبا ، واخذ مكانه ، وترجل الحاج مراد كذلك ومشى فى عرج خفيف ودخل تحت السقيفة . وخرج من الباب فى سرعة صبى فى الخامسة عشرة ولقيه وركز دهشا عينيه المتالقتين السوداوين (كالخوخ البرى الناضج) فى القادمين الجديدين .

فقال العجوز آمرا ، وهو يتقدم مسرعا ليفتح الى داخل الدارة الباب الرقيق ذى الصرير : « اجر الى المسجد وناد اباك » .

وفيما كان الحاج مراد يلج الباب الخارجى أتت من باب داخلى امرأة نصف تحمل وسائد ، وكانت واهنـــة هزيلة فى سترة صفراء ومشلح احمر وسراويل زرقاء واسعة .

وقالت : « هبطت السعادة مع القادم ! » وانحنت حتى كادت تنثنى نصفين ، واخذت : تسوى الوسائد فى محاذاة الحـــــائط الامامى كى يجلس عليها الضيف .

فاجاب الحاج مراد : « عاش بنوك » . وخلع بردته وبندقيته وسيفه وسلمها الى العجوز الذى علق البندقية والسيف فى عناية على مسمار الى جانب اسلحة رب البيت وكانت معلقة بين طستين

(١) المشلح : قميص ذو اكمام واسمه التترى « بشميت » .

(٢) ودك : اى زلق من الدهن الذى يعلوه .

واسعين يلمعان على الحائط النظيف الذى كسى بالخزف والذى عنى بطلائه بالجص « الجير » الأبيض .

سوى الحاج مراد الغدارة عند ظهره وصعد الى الوسائد والتف فى سترته الشركسية التفافا محكما ، وجلس العجوز القرفصاء على عقبيهَ العاريتين بجواره وأطبق عينيه ورفع راحتيه الى اعلى ، وكذلك فعل الحاج مراد . وبعد ان رددا دعاء مسح كل منهما وجهه مارا بيديه الى اسفل حتى تلاقت الراحتان عند نهاية لحيته .

واستفهم الحاج مراد موجها كلامه الى العجوز : « نى خبر ؟ » (هل من جديد ؟) .

فأجاب وهو ينظر بعينيه الحمراوين الهامدتين ، لا الى وجه الحاج مراد بل الى صدره : « خبر يوك » « لا جديد » « انى اعيش فى المنحل وحضرت اليوم فقط لأرى ولدى ... وهو يعرف » .

ولما فهم الحاج مراد أن العجوز لم يرد ان يقول ما يعلم وما اراد الحاج مراد ان يعرف اطرق رأسه اطراقه يسيرة ولم يزد سؤالا .

فقال الرجل : لا توجد اخبار طيبة . والخبر الوحيد هو ان الأرانب ما تزال تجادل في كيف تقصى النسور ، والنسور تمزقها واحدا فواحدا . وقد حرق كلاب الروس منذ ايام الدريس فى « محلة منشت .. » وأضاف غاضبا فى صوت أجش : « مزق الله وجوههم ! » .

ودخل مريد الحاج مراد الى الغرفة ، وساقاه القويتان تنفرجان بخطى واسعة وئيدة فوق الأرضية الترابية ، فاستبقى خنجره وغدارته ليس غير ، وخلع بردته وبندقيته وسيفه مثلما فعل الحاج مراد ، وعلقها على المسامير نفسها التى علق عليها زعيمه اسلحته .

واستفهم العجوز مشيرا الى القادم الجديد : « من يكون ؟ » .

فقال الحاج مراد : « انه مريدى ، واسمه الدار » .

فقال العجوز : « حسنا » وأومأ الى « الدار » بمكان على قطعة من اللباد الى جوار الحاج مراد . فجلس الدار متقاطع الساقين

[illegible] بعينيه اللطيفتين كعينى الكبش على العجوز الذى ـ بعد ان [illegible] الكلام الآن ـ طفق يقص كيف قبض رفقاؤهم البواسل على [illegible] روسيين فى الأسبوع المنصرم وقتلوا احدهما وارسلوا [illegible] الى شامل فى فيدان .

[illegible] الحاج مراد فى غير انتباه وهو يرمق الباب ويصغى الى [illegible] فى الخارج . ومن تحت السقيفة سمع وقع اقدام ، وصر [illegible] ودخل سعد سيد الدارة ، وهو رجل فى نحو الأربعين ذو [illegible] سفيرة وانف طويل وعينين سوداوين وان لم تتالقا تالق عينى [illegible] البالغ خمس عشرة سنة الذى كان قد جرى ليناديه والذى [illegible] الآن مع ابيه وجلس الى جانب الباب .

خلع سيد البيت (قبقابه) لدى الباب ورفع طاقيته القديمة الخلق (١) الى مؤخر راسه (التى لم تحلق منذ زمن طويل حتى اخذت تكثف بالشعر الأسود) ولم يلبث ان جلس القرفصاء امام الحاج مراد .

ورفع هو أيضا راحتيه الى أعلى مثلما فعل العجوز وردد دعاء ومسح وجهه بيديه الى اسفل ، وبعد ذلك فقط بدأ يتكلم . قال : ان امرا صدر من شامل بالقبض على الحاج مراد حيا أو ميتا ، وان مبعوثى شامل بارحوا فى اليوم السابق ليس الا ، وان الناس يخشون عصيان أوامر شامل . وان الحذر ضرورى اذن تبعا لذلك .

فقال سعد : « فى بيتى لن يؤذى احد اخى فى العهد ما حييت ، ولكن كيف تكون الحال فى الحقول الطليقة ؟ .. علينا ان نتبصر الأمر » .

واصغى الحاج مراد فى انتباه واطرق مؤمنا . وقال وقد فرغ سعد :

ـ حسنا جدا ، علينا الآن ان نرسل رجلا بخطاب الى الروس سيذهب مريدى ولكن سيكون فى حاجة الى دليل ..

فقال سعد : سأرسل الأخ (باطة) . واضاف وهو يتحول نحو ولده : اذهب وناد (باطة) .

(١) الخلق « بفتح اللام للمؤنث والمذكر » أى البالى .

فوثب الولد من فوره على قدميه المداءتين كانه فوق زمبرك وارجع ذراعيه وزابل الدارة مسرعا . وبعد نحو من عشر دقائق عاد مع رجل من اهل ششنيا مفتول العضل قصير الساقين ، لوحته الشمس حتى كاد يسود ، يلبس سترة قوقازية خلقــــا مهلهلة ، صفراء ذات كمين ناحلين و (طوزلوق) اسود ذا غضون .

فحيا الحاج مراد القادم الجديد ، ومرة اخرى سأل من فوره دون ان يهدر كلمة واحدة .

ــ « الا تستطيع ان تقود مريدى الى الروس ؟ » .

فاجاب (باطة) فى ابتهاج : « استطيع ، استطيع يقينا ان افعل ذلك . وليس فى وسع ششنى آخر ان يمضى مثلما افعل . قد يقبل غيرى الذهاب وقد يعد باى شىء غير انه لن يصنع شيئا . ولكن ذلك فى مقدورى » .

فقال الحاج مراد : « حسنا ، وستتقاضى ثلاثة لقاء تعبك » ورفع ثلاث اصابع .

واطرق (باطة) ليظهر انه فهم ، واضاف انه لا يكبر المــال وانما الشرف وحسب . وان كل من فى الجبال يعرف الحــاج مرادا ويعلم كيف ينحر الخنزير الرومى .

قال الحاج مراد : « حسن جدا ، الواجب ان يكون الحبل طويلا والمقال قصيرا » .

فاجاب (باطة) : « واذن فسامسك عن الكلام » .

قال الحاج مراد : « حيث ينعرج نهر الارجن الى جانب الجرف توجد كومتان فى ممر بالغابة ، اتعرف ذلك ؟ » .

ــ « اعرف » .

قال الحاج مراد : « هناك ينتظرنى فرسانى الاربعة » :

فاجاب (باطة) مطرقا : « اى نعم » .

ــ « سل عن خان محمد ، انه يعرف ما عليه ان يصنع وما عليه ان يقول » .

ــ « اليس فى مقــدورك ان تقــوده الى القــائد الروسى الامير فورونتسوف ؟ » .

ــ « بلى ، ساخذه » .

ــ « اليس فى مقدورك ان تاخذه وتعود به ثانية ؟ » .

ــ « فى مقدورى » .

ــ « اذن فخــذه الى هناك وعد الى الغــابة ، وساكون انا ايضا هناك » .

قال (باطة) : « سانفذ الامر جميعا » ونهض ووضع يديه على قلبه وانصرف .

واستدار الحاج مراد نحو ضيفه .

وبدا : « ويجب ايضا ارسال رجل الى تشيكى » .

وامسك بجراب من اجربة الفشك (١) التى فى سترته الشركسية ثم ترك يده تسقط فورا وامسك عن الـكلام وقد راى امراتين تدخلان الدارة .

كانت احداهما امراة سعد وهى المراة النصف الهزيلة التى سوت الوسائد ، والثانية فتاة جد صغيرة تلبس سراويل حمراء ومشلحا اخضر وغطى صدر ثوبها جميعا قلادة من العملة الفضية ، وعلق روبل فضى فى ذيل جديلة شعرها الجعد الاسود القصيرة الكثيفة مع تلك التى تدلت بين صفحتى منكبيها الرقيقين . وكانت عيناها اللتان فى سواد الخوخ البرى كعيون ابيها واخيها تتالقان تالقا مشرقا فى وجهها الصغير الذى حاول ان يتجهم . ولم تنظر الى الاضياف وان تجلى انها احست وجودهم .

ودخلت امراة سعد بخــوان صغير مستدير عليه شاى وفطير بالزبد والجبن (وشرك) ، والفتاة بطست وابريق وفوطة .

وامسك سعد والحاج مراد عن الـكلام طوال الفترة التى فيهــا تنقلت المراتان وحليهما من العملة الفضية يوسوس (٢) تنقلا رفيقا بخفيهما ذوى النعل النــاعم لتصفا امام الاضياف الاشياء التى احضرتا .

اما الدار فقد جلس ــ طوال الفترة التى بقيت فيها المراتان فى

(١) الفشك بفتحتين : ما يعرف بالخرطوش .
(٢) وسوسة الحلى او القصب صوته .

الدارة ـ ساكنا لا يتحرك كالتمثال ، وعيناه اللتان تحكيان عينى الكبش تتركزان على ساقيه المتقاطعتين . ولم يتنهد الرجل تنهدا يؤذن بالفرج الا بعد ان خرجتا ولم يعد وقع خطاهما الرقيقة يسمع من وراء الباب .

وبعد أن سحب الحاج مراد رصاصة من كنانة الفشك الذى فى سترته الشركسية ، وبعد أن أخرج من تحته مكتوبا مطويا أبرزه قائلا :

ـ « يسلم الى ولدى » .

ـ « والى اين يجب ارسال الرد ؟ » .

ـ « اليك ، وينبغى عليك أن تبعث به الى » .

قال سعد : « سيكون ذلك » . ووضع المكتوب فى جيب فشكة بسترته ثم رفع الابريق المعدنى وحرك الطست ناحية الحاج مراد .

وطوى الحاج مراد كمى مشلحه الى أعلى على ذراعيه الضليعتين ومد يديه تحت الماء الرائق البارد الذى صبه سعد من الابريق ، وبعد أن نشفهما بالفوطة النظيفة غير المبيضة استدار الى الخوان ، وكذلك فعل الدار . وفيما كان الأضياف يأكلون جلس سعد قبالتهم وشكرهم مرات عديدة على زيارتهم وجلس الولد الى جوار الباب ولم يرفع عينيه المتلألئتين عن وجه الحاج مراد ، وابتسم كأنما يؤكد كلام والده .

ومع أن الحاج مرادا لم يتناول طعاما منذ أكثر من اربع وعشرين ساعة فانه لم يأكل غير قليل من الخبز والجبن ، ثم استل سكينا صغيرا من تحت خنجره وبسط شيئا من الشهد على كسرة من الخبز .

قال العجوز وقد ظهر عليه السرور عندما رأى الحاج مرادا يأكل من شهده : « شهدنا جيد . انه فى هذا العام بالذات اوفر وأجود منه فى كل عام » .

فقال الحاج مراد : « أشكرك » وتحول عن الخوان . وود الدار لو تابع الأكل ولكنه حذا حذو زعيمه ، وما كاد ينصرف عن الخوان حتى ناوله الابريق والطست .

وكان سعد يعلم أنه ـ باستقباله ضيفا كهذا ـ يعرض حياته

للخطر باستقباله فى بيته ضيفا كهذا . لأن هذا الأخير بعد ما اختصم الحاج مرادا أذاع بلاغا على أهل ششنيا قاطبة ينهاهم عن أن يستضيفوا الحاج مرادا والا كانت عقوبتهم الموت . وهو يعلم أن أهل المحلة قد يتنبهون فى أية لحظة لوجود الحاج مراد فى بيته ويطلبون تسليمه ، ولكن هذا لم يرض سعدا فحسب بل بلغ من شأنه ان أشاع فى نفسه الغبطة ، وانما عد ان من واجبه أن يحمى ضيفه ولو دفع حياته ثمنا لذلك ، وكان فخورا بنفسه مغتبطا بها لادائه هذا الواجب .

واعاد وهو يخاطب الحاج مراد : « طالما أنت فى بيتى وراسى فوق منكبى لن يمسسك أحد بسوء » .

ونظر الحاج مراد فى عينيه المتلألئتين واقتنع بصدق هذا الكلام ، فقال فى شيء من الجد :

ـ « نعمت بالسعادة والعمر المديد ؟ » .

فوضع سعد يده على قلبه فى صمت أمارة الشكران على تلك الكلمات الكريمة .

وما ان اغلق سعد صفاق (١) نوافذ الدارة ووضع بعض الأعواد (٢) فى المدفأة حتى زايل الغرفة وهو منشرح الصدر بادى النشاط الى حد غير مألوف ، وزايل الغرفة وذهب الى ذلك الجزء من الدارة الذى تعيش فيه أسرته كلها . ولم تكن النساء قد أوين الى مخادعهن بل كن يتحدثن عن الضيفين الخطرين اللذين يمضيان الليلة فى الحجرة التى أعدت للأضياف .

(١) الصفاق بكسر ففتح ما يعرف بالضلفة أو الدرفة أو الدفة .
(٢) العود هنا الغصن بعد أن يقطع .

- ٢ -

من قزدفز هنسك ـ وهو الحصن الامامى الذى يبعد نحو عشرة اميال من المحطة التى كان الحاج مراد يمضى فيها ليلته ـ خرج ثلاثة جنود وضابط صف وذهبوا الى ما بعد باب شاه جيرنسك . وكان الجنود يرتدون الزى الذى كان يلبسه عساكر القوقاز فى تلك الايام وهو سترة وطاقية من جلود الغنم وحذاءين يمتـــدان الى ما فوق الركبتين وعطافا (١) يلف ويشد على عرض التكبين من جانب لآخر . حملوا السـلاح على عواتقهم واسروا (٢) اول الامر نحو خمسمائة خطوة على طول الطريق ثم انثنوا عنها وتقدموا نحو عشرين خطوة الى اليمين ـ واوراق الشجر الخامدة تخشخش تحت احذيتهم ـ حتى وصلوا الى ارومة شجرة دلب مكسورة مسودة اللون ترى فى صعوبة من خـلال الظلام ، وهناك وقفوا . وعند شجرة الدلب هذى جرت العادة بأن ترابط جماعة كمين .

اما النجوم النيرة التى بدا انهـا تجرى على طول رءوس الشجر عندما كان الجنود يسرون لدى اختراق الغـابة فقد توقفت الآن متلالئة فى اشراق بين اغصان الشجر العارية .

قال ضـابط الصف بانوف : « عظيم . انها يابسة » ، وانزل بندقيته الطويلة وسنجته فى قعقعة من فوق منكبه واسندها الى شجرة الدلب .

وكذلك فعل الجنود الثلاثة .

وهمهم بانوف فى عبوس : « اكاد اوقن انى فقدته ! لابد ان اكون قد خلفته ورائى او اسقطته فى الطريق » .

فسأل احد الجنود فى صوت مفصح انيس : « عم تفتش ؟ » .

ـ « عن بطن غليونى ، يا الشيطان ، اين ذهب ؟ » .

(١) العطاف «بكسر ففتح» قناع يشبه العباءة .
(٢) السرى «بالسين المضمومة والراء المفتوحة» السير ليلا .

فسأل الصوت الأنيس : « هل معك عنقه » .

ـ « ها هو ذا » .

ـ « لم لا ترشقه فى الارض رشقا مستقيما ؟ » .

ـ « انه لا يستاهل الانشغال بأمره » .

ـ « سنهيىء ذلك فى دقيقة واحدة » .

كان التدخين فى الكمين ممنوعا ، ولـكنه فى تلك المرة لا يكاد يستحق هذا الاسم ، فهـو اقرب الى ان يكون مخفرا اماميا يمنع الجبليين من ان يحضروا خلسة مدفعا يطلقونه على الحصن كما كانت عادتهم . ولذا لم يحسب بانوف أن التخلى عن لذة التدخين امر واجب التنفيذ ، ولهذا قبل العرض السار الذى عرضه الجندى . واخرج هذا الاخير من جيبه مدية واحتفر فى الارض تجويفـــا صغيرا . ثم صقلها واحكم رشق عنق الغليون فيها . ثم ملأ التجويف بالطباق وضغطه الى اسفل واصبح الغليون معدا . وتوهج ثقاب من الكبريت واضاء لحظة وجه الجندى العريض الخدين الذى رقد على معدته ، وصفر الهواء فى عنق الغليون واشتم بانوف رائحة الطباق المحترق الزكية .

وقال وهو ينهض على قدميه : « ثبته » .

ـ « طبعا طبعا » .

ـ « ما احذقك من شاب يا افديف ! لك حكمة القاضى ! ثم ماذا ايها الفتى ؟ » .

وانقلب افديف على جانبيه ليفسح مكانا لبانوف تاركا الدخان يفلت من فمه .

وانبطح بانوف على وجهه ، وبعد أن مسح المبسم بكمه اخذ يستنشق .

وبعد أن فرغ الجنود من تدخينهم طفقوا يتكلمون .

فلاحظ احدهم فى صوت وان : « يقولون ان القائد مد اصابعه الى صندوق المال مرة اخرى بعد أن خسر فى الميسر » .

قال بانوف : « سيردها » .

وامن أفديف : « سيفعل ذلك بالطبع ، انه ضابط طيب » .

فردد الرجل الذى بدأ الحديث : « حسنا حسنا ـ وعندى ان الجماعة يجب أن تقول له : اذا كنت قد اخذت المال فخبرنا كم عدده ومتى ترده ؟ » .

قال بانوف وهو ينتزع نفسه من الفليون : « سيسير هذا الامر وفقا لما تقدره السرية » .

فأمن افديف : « بالطبع » واقتبس مثلا يقول : « الجماعة رجل قوى » .

فأصر المتبرم : « سوف يلزم شراء الشوفان واستحضار الاحذية عندما يقترب الربيع ، وستدعو الحاجة الى مال ، وماذا عسانا نصنع اذا كان قد اختلسه ؟ » .

ورد بانوف : « اقول لك ان هذا سيتبع رغبة السرية . وما هذى بالمرة الأولى ، انه يأخذه ويعيده » .

وكانت كل سرية فى القوقاز فى تلك الايام تختار رجلا ليدير شئون الميرة ، على ان يتقاضى الرجل ستة روبلات و ٥٠ كوبك (١) فى كل شهر ويتناول مؤونته من السرية . وكانوا يزرعون الكرمب ويجففون الدريس ويركبون عربات خاصة تصرف لهم ويزدهون بالخيل التى تطعم طعاما جيدا . وكان مال السرية يودع صندوقا مفتاحه مع القائد وكثيرا ما اقترض هذا من ذلك الصندوق . وقد حدث هذا توا مرة أخرى ، وكان الجنود يتحدثون عنه .

وقد رغب الجندى الشكس نيكيتين فى ان يحاسب القائد على حين أن بانوف وأفديف لم يريا ضرورة لذلك .

ودخن نيكيتين بعد بانوف ثم بسط عطافه على الارض وجلس عليه مستندا الى أرومة شجرة الدلب .

... كان الجنود صامتين ، وهامات الشجر البعيدة فوق رءوسهم تخشخش فى الهواء ، وعلى حين فجأة علا فوق هذا الحفيف الخافت

(١) ويساوى هذا بالقدر جنيها انجليزيا لان الروبل فى ذلك الوقت قيمته ثلاث شلنات ..

... عواء ابن آوى وولولته واعواله واهنافه (١) .

« اسمع الى تلك المخلوقات الملعونة ... كيف تموء ! (٢) » .

ولاحظ الصوت العالى للثالث وهو جندى من يكرينيا : « انها ... منك لأن فاك كله على ناحية واحدة » .

وصمت كل شيء من جديد اللهم الا الريح التى تميل بالغصون ، تكشف النجوم تارة وتخفيها طورا .

وعلى حين فجاة سال افديف المرح : « اسمع يا بانوف ، آتشعر بتبلد فى بعض الأحيان ؟ » .

فأجاب بانوف فى احجام : « بتبلد » : لماذا ؟ .

ـ اما انا فكذلك ... انى اشعر احيانا بحالة من التبلد تجعلنى لا اعرف ما الذى قد لا اكون مستعدا لأن أصنع بنفسى .

فكان كل ما اجاب به بانوف قوله : « وبعد ، وبعد ! » .

ـ « تلك المرة التى حسوت فيها النقود كان مردها الى التبلد الذى استولى على ... استولى على حتى قلت لنفسى : سأشرب حتى يعمينى السكر ! » .

ـ « ولكن السكر احيانا يزيد الحالة سوءا » .

ـ « اجل ، ذلك ايضا حدث لى ، ولكن ما عسى ان يصنع المرء مع نفسه ؟ » :

ـ « ولكن ما الذى يجعلك تشعر بمثل هذا التبلد ؟ » .

ـ « أنا ؟ ... انه الحنين الى الأسرة » .

ـ « وعلى هذا ، هل أسرتك ذات سعة ؟ » .

ـ « كلا ، لم نكن كذلك ، ولكن الأمور كانت تسير سيرا حسنا ، فعشنا عيشة ميسورة » . واخذ افديف يقص ما سبق ان قصة على بانوف مرات عديدة .

قال : لقد انخرطت فى سلك الجندية بمحض ارادتى بدلا عن

(١) الاهناف أو التهنيف : ضحك فى فتور كالمستهزىء . أما الاعوال فهو البكاء بصوت عال ..

(٢) المواء صياح القط ونحوه .

اخى . كان له اولاد .. كانت اسرته مكونة من خمســــة ، وكنت حديث الزواج وطفقت امى ترجونى ان اذهب . فقلت فى نفسى : حسنا ، ربما يذكرون لى ما انا صانع . فذهبت الى صاحب الارض التى نعمل فيها وكان سيدا طيبا فقال : « انت فتى وديع ، اذهب » وعلى هذا ذهبت بدلا عن اخى » .

قال بانوف : « كان هذا فى محله » .

— « ومع ذلك فهل تصدقنى يا بانوف اذا قلت لك باننى لهـذا السبب خاصة اشعر بالتبلد . اننى أقول لنفسى : لم ذهبت بدلا عن اخيك ؟ انه يعيش كملك هناك بينما تكابد انت هنا . وكلما فكرت فى الامر ازداد شعورى سوءا .. ويبدو انه شىء من سوء الحظ » .

وصمت أفديف .

وقال بعد ان توقف هنيهة : « ربما كان خيرا لنا ان ندخن مرة اخرى » .

— « حسنا ، هيئها اذن ! » .

ولكن الجنود ما كان لهم ان يدخنوا اذا لم يكد افديف ينهض لتثبيت عنق الغليون فى مكانه حتى سمعوا وقع اقدام على طول الطريق غطى على حفيف الشجر ، فاخذ بانوف بندقيته ودفع بقدمه نيكيتين .

ونهض نيكيتين ولقط عطافه .

وكذلك نهض الجندى الثالث بوندارنيكو وقال :
— « ... ولقد رأيت رؤيا جد غريبة يا رفاق .. » .

قال افديف : « صه » وحبس الجنــود انفاسهم مصغين . وسمع وقع اقدام لرجال يلبسون احذية طرية النعال يقتربون ، وقد تسنى سماع اوراق الشجر المتساقطة والغصون اليابسة فى وضوح مطرد الزيادة من خلال الظلام . ثم وصلت اصوات اللهجـــات الحلقية الخاصة بأهل ششنيا . ولم يتيسر للجنود الآن أن يسمعوا رجالا يقتربون وحسب بل استطاعوا أن يروا شبحين يمران من خلال فراغ خالص بين الأشجار احدهما أطول من الآخر .

فلما حاذى هذان الشبحان الجنود خرج بانوف وبندقيته فى يده الى الطريق وتبعه رفاقه .

فلما حاذى هذا الشبحان الجنود خرج بانوف وبندقيته فى يده الى الطريق وتبعه رفاقه .

وصاح : « من السارى هناك ؟ » .

قال الاقصر : « انا ، ششنى صديق » ، وكان هو (باطة) . واشار الى نفســه قائلا : « بندقية يوك (١) ، سيف يوك ، الامير اريد » .

ووقف الاطول صامتا الى جانب رفيقه وكان غير مسلح كذلك .

ففسر بانوف لرفاقه : « يعنى انه كشاف ويريد امير الالاى » .

قال (باطة) : « الامير فوروتنسوف .. كثيرا جدا اريد ! شغل كبير ! » (٢) .

قال بانوف : « طيب طيب ، سناخذك اليه » .

ووجه الـكلام الى افديف : « اسمع ! الاولى أن تأخذهما انت وبوندارنيكو ، فاذا سلمتهما الى الضابط الذى عليه الحراسة فعـد ثانية » واضاف : « احرص على ان تجعلهما امامك ! » .

فقال افديف وهو يحرك بندقيته وسنجته كأنما يطعن شخصا ما : « وما قولك فى هذا ؟ ما على الا ان اعزق عزقة وأترك النفس يخرج منه ! » .

فلاحظ بوندراتيكو : « وماذا يساوى بعد ان تخزه ؟ » .

— « والآن سر ! » .

ولما لم تعد تسمع خطوات الجنديين اللذين يقودان الكشافين رجع بانوف ونيكيتين الى موقعهما .

وقال نيكيتين : « يا للشيطان ، ما اللذى اتى بهما الى هنـــا ليلا ؟ » .

فقال بانوف : « يلوح ان ذلك الامر ضرورى » . واضاف : « ولكن البرد يزداد شدة » . ثم نشر عطافه ولبسه وجلس الى جانب الشجرة .

---

(١) يوك كلمة يستعملها الترك والتتر ومن اليهم للنفى بمعنى : لا
(٢) تعبيرات كثيرة الخطأ لانه من عامة التتر ولا يحسن الروسية .

وبعد نحو ساعتين عاد افديف وبوندارنيكو .

ـ « ماذا ـ هل سلمتهما ؟ » .

ـ « أجل ، لم يكن رجال أمير الالاى قد ناموا بعد ، فاقتيدا اليه من فورهما » واستطرد افديف :

ـ « أو تعلمون يا رفاق ان هذين الصبيين الحليقى الراس لطيفان ، اجل ، حقا ، اى حديث تحدثت معهما ! » .

فلاحظ نيكيتين مستنكرا : « بالطبع كان واجبك ان تتحدث » .

ـ « حقا انهما كالروس . واحدهما متزوج . وقلت له : هل (آخذ) (١) ؟ فقال : (خذ) . يابوندارنيكو ألم اقل : (خذ) ؟ (خذ) كثيرا . اثنتين . يا للطف الحديث : ويا للطف الفتيين ! » .

فقال نيكيتين : « لطيف ما في ذلك شك ! لو انك قابلته وحدك لترك احشاءك تخرج منك » .

قال بانوف : « سينبثق الضياء عما قريب » .

وقال افديف وهو يجلس ويتهيأ لوضع مريح . « اجل . لقد طفقت النجوم تطل » .

وصمت الجنود من جديد .

(١) بار : كلمة يستعملها التتر بمعنى « خذ » ، ولعل الحديث هنا مداره لفائف التبغ « السجاير » .

- ٣ -

اظلمت نوافذ الثكنات ومنازل الجنود طويلا فى الحصن ، ولكن اضواء كانت ما تزال موقدة فى نوافذ احسن البيوت جميعا .

وكان يقيم فى هذا البيت الامير سيمون ميخائيلوفتش فورونتسوف قائد فرقة الكورين ، وهو ياور امبراطورى وابن القائد العام . وكانت تقيم معه زوجتـــه مارية فاسيلفنة ، وهى احدى نساء بطرسبرج (١) اللائى اشتهرن بجمالهن ، وقد عاشا فى ذلك الحصن القوقازى الصغير عيشة كل من سبقت له الاقامة هناك . وقد بدا لفورونتسوف ـ وبدا لزوجته اكثر منه ـ أن عيشتهما جد متضعة بل يملؤها الحرمان ، بينما لاح لمن يقيمون حولهم ان بذخهما مذهل معجز .

فى تلك اللحظـــة بالذات فى منتصف الليل كان يجلس رب الدار وربة الدار يلعبان الورق مع اضيافهما على منضدة خاصة بذلك (تضيئها شموع اربع) نصبت فى ردهة الاستقبال الفيحاء التى تكسو ارضها البسط ونوافذها ستر فخمة أسدلت عليها من جانب لآخر وكان يشارك فورونتسوف ـ الذى استطال وجهه ولبس شعار الباورية وامراسها الذهبية ـ شاب اشعث كئيب الهيئة تخرج فى جامعة بطرسبرج وانفذته الاميرة اخيرا الى القوقاز ليكون مؤدبا لولدها الصغير (من زواجها الاول) . وعارضهم فى اللعب ضابطان : احدهما بولتوريتسكى وهو قائد من قـــواد السرية بادلت به واحدا من الحرس ، وثانيهما ملازم بالفرقة العسكرية وقد جلس على كرسيه منتصب القامة جدا يعلو وجهه الجميل تعبير فاتر .

وجلست الاميرة مارية فاسيلفنة ـ وهى غانية عريضة المنكبين ، واسعة العينين ، مقطبة الجبين ـ الى جوار بولتوريتسكى ونقبتها (٢) تمس ساقيه ـ وهى تطل على ورقة . وكان فى الفاظها وفى نظراتها

(١) لينتجراد الان .

(٢) تنورة مبطنة بسلك شكلها كالجرس كانت النبيلات يلبسنها بوصفها النصف الاسفل من الثوب .

وفي ابتساماتها وفي طيبها وفي كل حركة من حركات جسدها شيء يغلب بولتوريتسكي على امره ويجعله ينسى كل شيء غير احساسه بقربها منه ، فتوالى خطؤه واخذ يثير غضب شريكه أكثر فأكثر .

قال ملازم الفرقة العســـــكرية وقد احمر وجهه عنـدما رمى بولتوريتسكي (آس) : « لا . هذا بالغ السوء . لقد عطلت (آس) مرة اخرى » .

وحول بولتوريتسكي عينيه السوداوين الرقيقتين (اللتين ركبت كل منهما بعيدة عن الأخرى) نحو ملازم الفرقة المتبرم ، وذلك في غير انتباه كأنما اوقظ من نومه توا .

فقالت مارية فاسيلفنة وهي تبتسم : « ارجوك ان تغفر له » . والتفت الى بولتوريتسكي مستطردة : « هو ذا ! الم اقل لك ذلك ؟ » .

فاجاب بولتوريتسكي وهو يبتسم : « ولــكن هــذا لم يكن كل ما قلته » .

ــ « الم يكن كذلك ؟ » بهذا استفهمت وهي تبتسم ابتسامة مليئة اثارت بولتوريتسكي وابهجته الى حد انه احمر احمرارا قرمزيا ثم امسك ورق اللعب واخذ يخلطه .

قال ملازم الفرقة متجهما : « ليس هذا دورك في التوزيع ! » وطفق ــ بيده البيضاء ذات الخاتم ــ يوزع كأنه اراد ان يتخلص من الورق على اسرع وجه ممكن .

ودخل وصيف الأمير بهو الاستقبال واعلن ان الضابط الذي عليه الحراسة يود ان يتحدث اليه .

فقال الأمير باللغة الروسية في لهجة انجليزية : « لا تؤاخذني ايها السادة ، هلا تفضلت بأخذ مكاني يا مارية ؟ » .

فاستفهمت الأميرة : « اتوافقون جميعا ؟ » ونصبت طولها الفارع في سرعة وخفة وكان لثيابها الحريرية حفيف وهي تبتسم ابتسامة المراة السعيدة المشرقة .

فاجاب الملازم : « انا دائما اوافق على كل شيء » . وقد سره جدا ان الأميرة ــ التي لا يسعها ان تلعب اطلاقا ستلعب الآن ضده .

ولم يزد بولتوريتسكي على ان يبسط يديه ويبتسم .

وكان دور اللعب على وشك الانتهاء عندما عاد الأمير الى ردهة الاستقبال منتعشا بادي الحبور .

ــ « اتعلم ماذا اقترح ؟ » .

ــ « ماذا ؟ » .

ــ « ان نتناول شيئا من الشمبانيا » .

قال بولتوريتسكي : « انا دائما مستعد لذلك » .

وقال الملازم : « لم لا ؟ يبهجنا ذلك » .

قال الأمير : « احضر شيئا منها يا وسيلي ! » .

وسألت مارية فاسيلفنة : « فيم طلبوك ؟ » .

ــ « ضابط الحراسة ورجل آخر » .

فسألت مارية فاسيلفنة : من ؟ وما الخبر ؟ .

فاجاب فورونتسوف وهو ينفض كتفيه :

ــ « ما ينبغي لي ان اقول » .

ــ « ما ينبغي لك ان تقـــول ! » رددت ذلك مارية فاسيلفنة ثم قالت : « سننظر في هذا » .

وعندما احضرت الشمبانيا شرب كل من الأضياف قدحا . ولمـا انتهوا من اللعب وسووا حسابه بدءوا يستأذنون في الخروج .

واستفهم الأمير بولتوريتسكي لدى الوداع :

ــ « هل سريتك هي التي امر بذهابها الى الغابة غدا ؟ » .

ــ « سريتي ، أجل .. لماذا ؟ » .

قال الأمير وهو يبتسم ابتسامة طفيفة : « واذن فسنلتقي في الغد » .

فاجاب بولتوريتسكي : « مسرور جدا » غير مدرك تماما ما كان يقوله له فورونتسوف ، وانما يشغل باله فقط انه بعد لحظة سيضغط يد مارية فاسيلفنة .

ولم تضغط مارية فاسيلفنة يده في عزم وحسب ولكنها هزتها هزا عنيفا كعادتها ، وذكرته من جديد بغلطته في لعب الديناري (١) وحبته بما عدها ابتسامة مبهجة ودودة ذات معنى .

وعاد بولتوريتسكي الى بيته في نشوة لا يدركها الا امثاله الذين نبتوا في المجتمع وتربوا فيه ولقوا نساءا من بيئتهم بعد شهور من الحياة الحربية المنعزلة ولا سيما اذا كن كالأميرة فورونتسوف .

فلما بلغ البيت الصغير الذي يسكنه ورفيقه دفع الباب ولكنه كان مغلقا ، وطرقه من غير طائل ، فاغتاظ واخذ يركله (٢) ويضربه بسيفه . ثم سمع وقع اقدام ، وفك فوفيلو — وهو خادم له من عبيد الأرض — عقافة (٣) الكوخ التي توصد الباب .

— « ماذا تعني بالاقفال على نفسك من الداخل أيها الاحمق ؟ » .

— « ولكن كيف يمكن يا سيدي .. ؟ » .

— « عدت الى السكر ! سأريك (كيف يمكن) ! » .

وهم بولتوريتسكي يضرب فوفيلو ولكنه عدل عن ذلك .

— « أوه ، اذهب الى الشيطان ! ... اوقد شمعة » .

— « حالا » .

وكان فوفيلو سكران حقا . لقد كان يشرب في وليمة عيد زواج جندي المهمات ايفان بتروفتش . ولما عاد الى البيت اخذ يقارن عيشته بعيشة هذه الأخير . كان ايفان بتروفتش ذا مرتب ومتزوجا ويأمل أن يعفى من الخدمة بعد عام .

لقد انتقلت ملكية فوفيلو صبيا — اى انه الحق بخدم منزل سيده — ومع انه الآن قد جاوز الأربعين فعلا لم يتزوج ، وانما عاش عيشة الجنود مع سيدة الفتى الأرعن . انه سيد طيب يندر ان يضربه ولكن اى حياة تلك ؟ وفكر فوفيلو : « لقد وعد ان يعتقني لدى عودتنا من القوقاز ، ولكن الى اين اذهب مع حريتي ؟ سأعيش كالكلب » . وشعر بسبات خشي معه أن يدخل ويسرق شيئا ، فأوصد عقافة الباب وغلبه النعاس .

(١) ورق ذى نقط على شكل معين .. (٢) الركل : الضرب بالرجل .
(٣) العقافة بضمة فشدة : خشبة أو نحوها في طرفها انعقاف اى انحناء . وهي تشبه « الضبة » .

ودخل بولتوريتسكي غرفة النوم التي شارك فيها رفيقه تيخونوف ، فسأله تيخونوف وهو يستيقظ : « خيرا ، هل خسرت ؟ » .

— « كلا ، حدث اني لم اخسر ، كسبت ١٧ روبلا وشربنا زجاجة من الكليكو ! » .

— « ورنوت الى مارية فاسيلفنة ؟ » .

وردد بولتوريتسكي : « اجل ، ورنوت الى مارية فاسيلفنة » .

قال تيخونوف : « سيؤذن حالا وقت النهوض ، علينا ان نبدأ في السادسة » .

وصاح بولتوريتسكي : « فوفيلو ! اعمل حسابك على ان توقظني كما ينبغي في الخامسة من صباح الغد ! » .

— « وكيف أقدر على ايقاظك اذا عاركتني ؟ » .

— « اقول لك : عليك أن توقظني ! أسامع انت ؟ » .

— « حاضر » .

وخرج فوفيلو ومعه حذاءا بولتوريتسكي وملابسه واندس بولتوريتسكي في الفراش ودخن لفيفة وأطفأ شمعة وهو يبتسم في الأثناء . وفي الظلام رأى أمامه وجه مارية فاسيلفنة الباسم .

.. ..

اما آل فورونتسوف فلم يناموا من فورهم . اذ عندما انصرف الأضياف صعدت مارية فاسيلفنة الى زوجها . ووقفت امامه ، وقالت في صرامة :

(بالفرنسية) « والآن ، ستخبرني بما هنالك » .

(بالفرنسية) « ولكن يا عزيزتي ... » .

(بالفرنسية) « لا تناديني بـ (يا عزيزتي) ! كان رسولا ، أليس كذلك ؟ » .

(بالفرنسية) « ومع فرض ذلك لا ينبغي لي ان اخبرك » .

(بالفرنسية) « لا ينبغي لك ؟ اذن فانا الذي سأخبرك ! » .

(بالفرنسية) « أنت ؟ » .

« كان الحاج مراد ، أليس كذلك ؟ » هكذا قالت مارية فاسيلفنة التى كانت ــ منذ ايام خلت ــ قد سمعت بالمفاوضات والتى ظنت أن الحاج مرادا نفسه حضر ليرى زوجها . لم يستطع فورونتسوف أن ينكر هذا كل الانكار ولكنه أخلف ظنها بقوله ان القادم لم يكن الحاج مرادا نفسه وانما كان رسولا يعلن أن الحاج مرادا سيأتى ليلقاه فى اليوم التالى فى الوضع الذى دبر ارســـال حملة للاحتطاب اليه .

وفى حياة الحصن الرتيبة اغبط الأصغران من آل فورونتسوف الزوج وزوجته ، كلاهمـا ــ بهذه المصادفة . وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما ذهبا ليناما بعد ان تحادثا عما سيجلبه هذا الخبر على ابيه من السرور .

- ٤ -

وبعد الليالى الثلاث التى لم يذق فيها الحاج مراد طعم النوم والتى قضاها فى الفرار من المريدين الذين ارسلهم شامل فى طلب القبض عليه أسلم نفسه للنوم بمجرد أن تمنى له سعد ليلة سعيدة وزايل الدارة . نام فى كامل بزته ، ورأسه على كفه ومرفقه غارق فى وسادة الزغب الحمراء التى هيأها له مضيفه .

وعلى مدى قصير الى جوار الحائط نام الدار . رقد على ظهره ، واطرافه القوية الفتية تستطيل الى حد صدره العالى ــ وجراب الفشك الأسود مخيط فى مقدمة سترته القوقازية البيضاء ــ علا عن راسه اللامعة الزرقة الحديثة الاحتلاق التى دحرجها الى خارج الوسادة فطرحت الى خلف . ومطت شـفته العليا ــ التى اخـذت زغبة صغيرة ناعمة تبدو فوقها توا ــ كمثل شفة الطفل تتقلص تارة وتنبسط طورا كأنما يرشف شيئا . ونام وغدارته وخنجره فى حزامه كالحاج مراد . واشتعلت الأعواد التى فى الموقد اشـــتعالا بسيطا وومض نبراس فى شكاة على الحائط ومضا حائلا .

ولما انتصف الليل صر اديم حجرة الأضياف فنهض الحاج مراد من فوره ويده على غدارته ، ودلف سعد بخطى رفيقة على اديم ارض الحجرة .

فسأل الحاج مراد كأنما لم يكن نائما اصلا : « ماذا ؟ » .

فاجاب سعد وهو يجلس القرفصاء قبالته : « ينبغى لنا ان نفكر : امراة من سطح منزلها رأتك قادما ، واخبرت زوجها ، والمحلة كلهـا تعلم الآن . وقد انبأ احد الجـيران زوجتى ان المشايخ احتشدوا بالمسجد يبغون اعتقالك » .

فقال الحاج مراد : « يجب أن ارحل ! » .

قال سعد وهو يبرح الدارة مسرعا : « الخيول المسرجة » .

وهمس الحاج مراد : « الدار ! » . وما كاد الدار يسمع اسمه

ـ وصوت سيده قبل كل اعتبار ـ حتى وثب عند قدميه ، وهو يقوم طاقيته في الأثناء .

ولبس الحاج مراد سلاحه ثم بردته ، وكذلك فعل الدار ، وخرج الاثنان في سكون من الدارة الى السقيفة ، واحضر الصبي ذو العينين السوداوين فرسيهما .

وسمع احدهم طق حوافر على الطريق المدقوق دقا محكما فاطل براسه خارج باب دارة مجاورة وصعد رجل الجبل صوب المسجد يطق بقبقابه . ولم يكن القمر طالعـــا ولـكن النجوم اضاءت السماء الداجية اضاءة مشرقة يسرت رؤية الحدود الخارجية لاسقف الدارة في الظـلام وكان المسجد بمآذنه في الجهة العليـا من المحلة يسمو على المباني الأخرى ومنه انبعثت همهمة .

واسرع الحاج مراد يقبض على بندقيته ويضع رجله في الركاب الضيق ، والقى بدنه في سكون وسهولة ورجع نفسه على وسادة السرج العالية .

وقال يخاطب مضيفه : « جزاك الله خيرا » فيما كانت قدمه اليمنى تحن بفطرتها الى الركاب ثم مس الصبي الذي امسك بفرسه مسا خفيفا بسوطه ايذانا بان عليه أن يطلقه . فتنحى الفتى جانبا ، وانطلق الفرس ـ كأنه يدري ما عليه أن يصنع ـ في خفة ونشاط منحدرا من الحارة صوب الشارع الرئيسي ، وركب الدار من خلفه ، وتبعهما سعد في فروة الضأن وهو يكاد يجري . وصار يرجح ذراعيه ، ويعبر الى احدى ناحيتي الشارع الجانبي الضيق تارة والى الناحية الأخرى طورا . وعند ملتقى الشارعين ظهر في الطريق أول الامر خيال يتحرك وتبعه ثان .

وصاح صوت : « قف ... من هذا ؟ قف ! » ومنع الطريق رجال عديدون .

وبدلا عن ان يقف الحاج مراد استل خنجره من حزامه وزاد سرعته وركب راسا مستهدفا أولئك الذين منعوا الطريق فتفرقوا ، ومن دون أن يتلفت حوله اخذ يهبط الطريق في خبب سريع ، وتبعه الدار يركض ركضا . وانطلقت طلقتـــان من خلفهما ثم صفرت رصاصتان الى أبعد منهما دون أن تصيبا لا الحاج مراد ولا الدار . وظل الحاج مراد راكبا بالسرعة نفسها ، وبعد أن قطع نحو ثلثمائة ياردة وقف

فرسه اللاهث بعض الشيء واصاخ بسمعه .

وأمامه الى أسفل بقبقت مياه تنساب مسرعة ، وخلفه في المحلة صاحت الديكة متجاوبة ، وفوق هـذه الأصـوات سمع وراءه وقع حوافر خيل يتدانى واصوات رجال عديدين . ومس الحاج مراد فرسه وساقه في سرعة مطمئنة . وعدا اولئك الذين من خلفه ولحقوا به مسرعين . وكانوا قرابة عشرين فارسا من سكان المحلة قضوا بان يعتقلوا الحاج مرادا او في القليل بأن يتظاهروا باعتقاله كي يسوغوا مركزهم في نظر شامل . فلما دنوا دنوا يكفي لرؤيتهم في الظلام توقف الحاج مراد وترك عنانه يتدلى ، وفي حركة من يده اليمنى تعودها فك أزرار غطاء غدارته التي سحبها باليمين . وكذلك فعل الدار .

وصاح الحاج مراد : « ماذا تبغون ؟ اترومون ان تأخذوني ؟ ... خذوني اذن ! » . وشهر غدارته . فتوقف الرجال الذين أتوا من المحلة . وركب الحاج مراد ـ وغدارته بيده ـ منحدرا في الوهد . وتبعه الخيالة ولكنهم لم يدنوا منه اكثر مما كانوا . ولما عبر الحاج مراد الى الجهة الأخرى من الوهد هتف به الرجال أن يستمع الى ما هم قائلون له . فكان جوابه أن اطلق غدارته وعدا بفرسه . وعندما صحه لم يكن مطاردوه في مدى السمع ، ولم يكن صياح الديكة يسمع بالمثل ، وانما كان جرس خرير الماء في الغابة أكثر وضوحا ، كمـــا سمع نعيق بومة بين الفينة والفينة ، وبدا جدار الغابة الأسود محكم الأطباق . وفي هذه الغابة بالذات كان ينتظره مريده .

وعندما بلغها الحاج مراد توقف ، وشهق قدرا وفيرا من الهواء الى رئتيه وصفر ثم أصاخ في صمت . وفي الدقيقة التالية أجابه من الغابة صفير مماثل . وانثنى الحاج مراد من الطريق ودخلها . وبعد ان سار نحو مائة خطوة راى بين أروم الشجرة نارا مشبوبة ، واطياف نفر من الرجال يجلسون من حولها ، وفرسا مسرجا محجلا يكاد يبين عنه وهج النار . وكان أربعة رجال يجلسون على مقربة منها .

ونهض احدهم مسرعا وجاء الى الحاج مراد وامسك بعنانه وركابه . وكان هذا أخاه في العهد الذي يقوم بتدبير شئون بيته له .

قال الحاج مراد وهو يترجل : « اخمد النار » .

فأخذ الرجال يبعثرون الكومة ويطأون الغصون المشتعلة .

واستفهم الحاج مراد متجها صوب طيلسان بسطت على الارض :

— « هل كان (باطة) هنا ؟ » .

— « اجل ، وذهب منذ زمن بعيد مع خان محمد » .

— « اية طريق سلكا ؟ » .

فاجاب حنفي : « تلك الطريق » مشيرا الى عكس الاتجاه الذى جاء منه الحاج مراد .

قال الحاج مراد : « حسنا » وخلع الغدارة واخذ يحشوها .

وقال لرجل كان يخمد النار : « علينا ان نحتاط فهم يتعقبونني » .

وكان هذا الرجل جمزالو من اهالي ششنيا . دنا جمزالو من الطيلسان ودفع غدارة كانت فوقها ملفوفة في جرابها ، وذهب — من دون أن ينبس بكلمة — الى جانب الممر الذى اتى منه الحاج مراد .

ولما ترجل الدار تناول فرس الحاج مراد . وكبح رامي الفرسين عاليين وربطهما الى شجرتين ثم تنكب غدارته على نحو ما فعل جمزالو وذهب الى الجانب الآخر من الممر . اخمدت النار ، ولم تلح الغابة سوداء كما بدت من قبل ، وظلت النجوم تلمع في السماء وان يكن لمعانها خافتا .

ولما رفع الحاج مراد بصره الى النجوم وراى ان عنقود الثريا قد علا فصلا حتى توسط السماء ، قدر أن منتصف الليل لابد أن يكون قد حان منذ وقت طويل وأن صلاة العشاء مضى على موعدها فترة مديدة . وطلب الى حنفي ابريقا (كان من عاداتهم ان ينقلوا ابريقا بين احمالهم) ولبس طيلسان وذهب الى حيث يوجد الماء .

وبعد أن خلع الحاج مراد نعليه وتوضأ ، خطا فوق طيلسانه بقدمين عاريتين ، وجلس القرفصاء واتجه الى القبلة ووضع ابهاميه في اذنيه وأسبل جفنيه وصلى ركعات الفرض كالمعتاد (١) .

ولما انتهى (من الصلاة) عاد الى حيث القى الخرج وجلس على الطيلسان (البردة) مسندا مرفقيه الى ركبتيه ، وحنى راسه وراح في تفكير عميق .

(١) كان هنا ايجاز بسيط صوبه المترجم باقرب الالفاظ الى الاصل .

كان الحاج مراد يؤمن بحظه ايمانا عظيما ، وكان دواما كلما اختط امرا شعر سلفا بانه واثق من النجاح وثوقا راسخا ، وكان الحظ يهش له . هكذا كانت حاله — فيما عدا استثناءات نادرة القلة — طوال مجرى حياته الحربية العاصفة ، وهكذا أمل ان تكون حاله الآن . وقد صور لنفسه كيف — بالجيش الذى قد يضمه فورونتسوف تحت امرته — يزحف على (شامل) ، ويأخذه اسيرا ، ويثار لنفسه منه ، وكيف يجزيه القيصر الروسى ، وكيف يعود فيحكم — لا آفاريا وحسب — بل ششنيا باجمعها التى ستذعن له . بهذه الافكار راح في النوم على غير ارادة منه .

وراى في نومه كيف انقض هو واعوانه البواسل على شامل وهم ينشدون ويهتفون : « الحاج مراد آت ! » وكيف قبضوا عليه وعلى ازواجه ، وكيف سمع الازواج تولولن . واستيقظ .

ولم يكن انشاد : « لا اله الا الله » وهتاف « الحاج مراد آت ! » وبكاء ازواج (شامل) غير عواء ابناء آوى التى ايقظته وبكائها وضحكها .

ورفع الحاج مراد راسه وتطلع الى السماء التي — كما لاحت من بين أروم الشجر — اخذت تخف تدريجا من ناحية الشرق ،واستفهم عن خان محمد من مريد جلس بعيدا عنه بعض الشيء . ولما علم ان خان محمد لم يعد بعد حنى راسه من جديد وراح في النوم توا .

وايقظه صوت خان محمد المبهج ، وقد عاد من مهمته مع (باطة) وجلس خان محمد من فوره في جوار الحاج مراد واخبره كيف لقيهما الجنود وقادوهما الى الامير نفسه ، وكيف سر الامير ، وكيف وعد بان يلقاهم في الصباح حيث يجندل الروس الشجر بعد المتشك في ممر شالين . وقاطع (باطة) الرسول الذى زامله ليضيف تفصيلات من لدنه .

واستفهم الحاج مراد بوجه خاص عن الكلمات التى رد بها فورونتسوف على ما عرضه من ان يمضي الى الروس . فأجاب خان محمد و (باطة) في صوت واحد بان الامير وعد بان يستقبل الحاج مرادا على انه ضيف وبان يتصرف بما فيه خيره .

وسالهما الحاج مراد عن الطريق . فلما أكد له خان محمد بانه يعرفها جيدا وانه سوف يقوده راسا الى الموضع اخرج الحاج مراد بعض المال ونقد (باطة) الثلاثة الروبلات الموعودة . ثم أمر رجاله بأن يخرجوا من الخرج أسلحته الموشاة بالذهب وعمامته وان ينظفوا انفسهم حتى تحسن هيئتهم لدى وصولهم بين الروس .

وفيما كانوا ينظفون اسلحتهم وخيلهم ومعـــداتهم غارت النجوم واشع الضياء جليا ، وسرى نسيم الصباح الباكر .

- ٥ -

فى الصباح الباكر والسماء ما تزال مظلمة ، سرت سريتان تحملان المنوس بقيادة بولتوريتسكى ، الى ما بعد باب شاه جيرينسك بستة اميال ، وبعد أن نشرتا صفا من القرطسين (١) شرع الجنود — اول ما طلع النهار — يعملون فى جندلة الأشجار . وفى نحو الساعة الثامنة أخذ يرتفع الضباب الذى خالط الدخان تعطره الاغصـــان الندية الخضراء التى (٢) تهشهش وتتشقق فوق النيران الموقدة ، وبدأ الحطابون (٣) — الذين حتى تلك اللحظة لم تبلغ آفاق رؤيتهم الى خمس خطوات بل سمع بعضهم بعضا ليس غير — يتبينون النيران الموقدة والطريق من خلال الغابة تسدها الأشجار المجندلة . وطفقت الشمس تبدو بقعة لامعة بين الضباب وتختفى لحظة اخرى .

وكان بولتوريتسكى وملازمه العســكرى تيخونوف وضابطان من السرية الثالثة وبارون فريزى (وهو ضابط سابق فى الحرس وزميل لبولتوريتسكى عندما كان طالبـا فى الكلية الحربية تم جرد من رتبته العسكرية لاشتراكه فى مبارزة) كان أولئك جميعا يجلسون على اروم الشجر المقطوعة فى الممر الذى يبعد بعض البعـــد عن الطريق . وانتشرت على الارض من حولهم قطع من الورق (كانت تحوى طعاما) واعقاب لفائف التبغ وزجاجات فارغة . وتناول الضـــباط بعض الفودكا واخـذوا الآن ياكلون ويشربون البورتر (٤) ، وكان طبال سبيل فض الزجاجة الثالثة .

وكان بولتوريتسكى — وان لم ينل قسطا كافيا من النوم — فى تلك الحالة القريبة من الزهو والحبور الرقيق المتراخى التى يستشعرها عندما يجد نفسه بين جنوده ومع رفقائه حيث يحتمل الخطر .

وكان الضباط يتحدثون فى حرارة حديثا موضوعه النبأ الاخير وهو وفاة القائد سلبتسوف . ولم ير أحدهم فى هذه الوفاة اهم لحظة فى الحياة وهى نهايتها وعودها الى المنهل الذى صدرت عنه

(١) القرطس الرجل السديد الرماية . من قرطس أصاب القرطاس اى الغرض .
(٢) هشهش : صات .
(٣) الحطاب الذى يقطع الاشجار .
(٤) خمر من شعير منبت كشعير البيرة ..

وانما راوا جسارة ضابط شهم ينقض على الجبليين وسيفه بيده ويثخن فيهم مستيئسا .

ومع انهم جميعا (ولا سيما من كان منهم قد مارس الحرب) يعلمون (ولم يكن فى وسعهم الا يعلموا) ان مناجزة بالسلاح الابيض فى تلك الايام بالقوقاز (وفى اى مكان وزمان آخرين) فى الواقع ، كالتى يتصورونها ويصورنها لا يتاتى لها أن تحدث بتاتا . واذا تاتى اطلاقا حدوث مناجزة بالسيوف والرماح فانما ياخذ السيف اولئك الذين يفرون ، اقول مع انهم جميعا يعلمون ذلك فان خرافة المناجزة بالسلاح الأبيض اسبغت عليهم ذينك الزهو الهادىء والابتهاج وهم جالسون على أروم الشجر المقطوعة ، بعضهم قد استخفه الطرب وبعضهم ــ على عكس ذلك ــ قد بدت عليه سيما التواضع ، واخذوا يشربون ويمزحون دون أن يفكروا فى الموت الذى قد يباغتهم فى اية لحظة كما باغت سلبتسوف ، وفى وسط كلامهم (كانمــا يراد توكيد ما توقعوه) سمعوا الى يسار الطريق صوت طلقة بندقية المثير المفرح وصفرت رصاصته صفرا مطربا فى مكان ما من الجو المشبع بالضباب، وطارت مارة بهم وانفجرت داخل شجرة .

وهتف بولتوريتسكى بصـــــوت ملؤه السرور : « هلو ! هذا فى حدودنا » واستدار الى فريزى : « والآن ياكوستيا ، والآن فرصتك : عد الى السرية ، وساقود أنا السرية باكملها لتدعيم النطــــاق (١) وستجهز معركة ستكون غاية فى البهجة . وبعد ذلك نقدم تقريرا » .

ووثب فريزى على قدميه واسرع الخطـــــو صوب البقعة التى يغشاها الدخان حيث خلف سريته .

وجىء الى بولتوريتسكى بفرسه الصغير الارقش (كمبردا) فركب وسحب سريته وقادها صوب الاتجاه الذى اطلقت منه الرصاصتان . وكان مركز الطليعة يقع على تخوم الغابة قبالة منحـدر الاخــــدود المكشوف وكانت الريح تهب فى اتجاه الغابة ولم يكن مستطاعا رؤية منحدر الاخدود وحسب ، بل كان جانبه المقابل يرى فى جلاء تام كذلك . ولما صعد بولتوريتسكى راكبا الى الخط خرجت الشمس من خلف الضــــــباب . وامكن رؤية فرسان قليل عديدهم على جانب الاخدود الاخر قرب حدود غابة ناشئة على بعد ربع ميل . وكان هؤلاء هم الششنيون الذين تعقبوا الحاج مرادا وابتغوا رؤيته وهو يلقى الروس . اطلق واحد منهم صوب الخط ورد عليه بطلقاتهم جنود

---

(١) النطاق ما يسمى بالكردون ..

ى ، وانسحب الششنيون ووقف اطلاق النار .

ومع ذلك فلما اقترب بولتوريتسكى وسريته أصدر امرا باطلاق النار ، ولم تكد الكلمة تذاع حتى بدات على طول خط القرطسين ...مه قعقعة بنادقنا المطردة المبهجة المثيرة تصحبها سحابات من الدخان صغيرة جميلة متداوية . ولما كان يسر الجنود ان يصيبوا بعض التسلية سارعوا الى ان يحشوا بنادقهم والى ان يطلقوا الرصاصة تلو الاخرى . والظاهر ان الششنيين سرى فيهم شعور الاستثارة فتواثبوا الى امام : الواحد فى اثر الواحد واطلقوا على رجالنا بضع رصاصات اصابت احداها جنديا هو افديف نفسه الذى رقد فى الكمين فى الليلة الماضية .

وعندما دنا رفاقه منه كان منبطحا يمسك معدته المجروحة بكلتا يديه يهدهد نفسه بحركة ايقاعية ويئن فى هوادة ، وكان من سرية بولتوريتسكى ، ولما راى بولتوريتسكى شرذمة من جنده متجمعة ركب اليهم .

قال بولتوريتسكى : « ما خطبك يا فتى ؟ أأصبت ؟ واين ؟ » .

فلم يجب افديف .

وقال جندى كان مع افديف : « كنت على وشك ان احشوا سلاحى ايها الشريف واذا بى اسمع طلقة ، وتلفت فوجدت بندقيته قد سقطت » .

طقطق بولتوريتسكى بلسانه وقال : « تت ، تت ، تت ، هل تؤلمك الما شديدا يا افديف ؟ » .

ــ « انها لا تؤلمنى ولكنها تمنعنى المشى . والآن . قطرة من الفودكا ايها الشريف ! » .

واستحضر بعض الفــــودكا (او بالاحرى الكحول الذى يشربه الجندى) وناول باتوف وهو شديد التجهم افديف غطاء آنية من صفيح مترعا ، وحاول افديف ان يشربه ولكنه اعاد الغطاء من فوره .

وقال : « ان نفسى لتعافه ، اشربه انت » .

وجرع باتوف الكحول حتى الثمالة .

وحاول افديف النهوض ولكنه هوى من فوره الى خلف . فبسطوا عطافا وارقدوه عليه .

وقال الصول لبولتوريتسكى : « امير الالاى قادم ايها الشريف » .

فاجاب بولتوريتسكى : « حسن ، واذن فهل لك ان تلازمه ؟ » .

ولوح بسوطه وركب وخب به الجواد خببا سريعا ليلقى فورونتسوف .

وكان فورونتسوف راكبا فرسه الخصى الانجليزى الأصيل الكستنائى يرافقه ملازم من القوزاق ومترجم ششنى .

وسأله فورونتسوف : « ماذا يدور هنا ؟ » .

فأجاب بولتوريتسكى : « جماعة مناوشة حملت على خطنا الأمامى » .

ــ « لا عليك ، لقد دبرت بنفسك الأمر جميعا ! » .

فقال بولتوريتسكى باسما : « كلا كلا أيها الامير ، أنا لم ادبر شيئا .

ــ « لقد تقدموا هاجمين من تلقاء أنفسهم » .

ــ « سمعت أن جنديا جرح ؟ » .

ــ « أجل ، يا للأسف الشديد ، انه جندى طيب » .

ــ « هل جرحه خطر ؟ » .

ــ « خطر فيما أعتقد ... فى المعدة » .

وسأل فورونتسوف : « أو تعلم الى أين أذهب ؟ » .

ــ « لا علم لى بذلك » .

ــ « أيسعك أن تحزر ؟ » .

ــ « كلا » .

ــ « أذعن الحاج مراد ونحن الآن ذاهبون للقائه » .

ــ « أنت لا تعنى أن تقول هذا ؟ » .

فقال فورونتسوف وهو يكبت فى ابتسامة سروره : « جاءنى رسوله امس . وسيكون هو فى انتظارى تلقاء ممر شالين بعد دقائق معدودات صف الرماة حتى الممر ثم تعال والحق بى » .

قال بولتوريتسكى . « مفهوم » ورفع يده الى طاقيته وركب وقفل راجعا الى سريته . وتقدم بنفسه الرماة الى الجهة اليمنى وأمر الصول أن يحذو حذوه فى الجهة اليسرى .

وفى هذا الوقت ذاته اعاد بعض الجند أفديف الجريح الى الحصن .

ولحظ بولتوريتسكى خلفه وهو فى طريق العودة فرسانا عديدين يلحقون به وكان يتقدمهم على فرس أبيض العرف رجل مهيب الطلعة عليه عمامة وحمل أسلحة عليها زخارف ذهبية ، وكان هذا الرجل الحاج مرادا .

ودنا من بولتوريتسكى وقال له شيئا باللسان التترى . ورفع بولتوريتسكى حاجبيه وادى بذراعيه حركة فحواها انه لم يفهم ثم ابتسم وبادله الحاج مراد ابتسامة بابتسامة ، واسترعت هذه الابتسامة نظر بولتوريتسكى بحنانها الذى يحاكى حنان الأطفال لانه لم ينتظر قط ان يرى الزعيم الجبلى الرهيب يبدو هكذا . لقد توقع ان يرى رجلا شكسا حاد القسمات فاذا به أمام ندب (١) له ابتسامة ذات حنان جعلت بولتوريتسكى يستشعر كأنه من معارفه القدامى . وكانت له خاصية وحيدة : وهى عيناه اللتان ركبت كل منهما بمنأى عن الأخرى واللتان تتفرسان من تحت حاجبيهما الأسودين فى عيون الآخرين فى هدوء ويقظة ونفاذ .

وكانت حاشية الحاج مراد خمسة رجال ، بينهم خان محمد الذى وفد ليرى الأمير فورونتسوف فى تلك الليلة ، وكان فتى مستدير الوجه وله عينان سوداوان لا أهداب لهما ، مشرق الديباجة ممتلىء النفس فرحا بالحياة . وبينهم أيضا آفار حنفى وهو رجل مكتنز ازب (٢) يلتقى حاجباه وقد عهد اليه الحاج مراد بالقيام على أمتعته كافة ، وكان يقود فرسا من الخيل التى يعنى بها للانتاج ، يحمل خرجة (٣) أحكمت تعبئتها . ولفت الأنظار من الحاشية بصفة خاصة رجلان : الأول من لسفيا ــ وهو فتى عريض المنكبين غير انه نحيل الخصر كالمرأة ذو عينين تعدلان عينى الحمل جمالا ومبادىء لحية بنية اللون ، وكان هذا الدار . والثانى جمزالو ــ وهو ششنى ذو لحية حمراء قصيرة ، ليس له حاجبان ولا أهداب ، قد ذهب نور عينيه ، وفى أنفه ووجهه ندبة (٤) وأشار بولتوريتسكى الى فورونتسوف الذى ظهر توا فى الطريق . وركب الحاج مراد ليلقاه ، ووضع يده اليمنى على قلبه وقال شيئا باللسان التترى وتوقف . وترجم الترجمان الششنى .

قال : « يقول : اسلم نفسى لمشيئته وارغب فى خدمته . وقد وددت ان اقوم بهذا منذ زمن طويل ولكن (شامل) لم يردن على أن افعل ذلك .

فلما سمع فورونتسوف ما قاله الترجمان مد يده فى قفازها المصنوع من جلد الغزال الى الحاج مراد الذى نظر اليها لحظة

---

(١) الندب : الظريف الخفيف الظل أو الحركة .
(٢) الازب : الكثير شعر الوجه والاذنين .
(٣) الخرجة : بكسر فسكون : جمع خرج .
(٤) الندبة : بفتح فسكون : أثر التحام الجرح .

فى تردد ثم ضغطها ضغطا شديدا وقال شيئا مرة اخرى ، ونظر الى المترجم اول الامر ثم الى فورونتسوف .

ــ « يقول انه لم يرد ان يسلم نفسه لاحد غيرك لانك ابن السردار ولانه يحترمك كثيرا » .

فاومأ فورونتسوف براسه ليعرب عن شكره . وقال الحاج مراد شيئا من جديد مشيرا الى حاشيته :

ــ « يقول ان هؤلاء الرجال ــ وهم حاشيته ــ سيخدمون الروس كما سيخدمهم » .

فاستدار فورونتسوف صوبهم وأومأ براسه اليهم كذلك . واوما ايضا الى الششنى الطروب ذى العينين السوداوين الخاليتين من الاهداب (خان محمــــــد) وقال شيئا اغلب الظن انه مضحك لان آفار الأزب استدرج شفتيه الى ابتسامة مبينا عن اسنانه التى تحاكى العاج بياضا . ولكن العين الوحيــــدة الحمراء لجمزالوذى الشعر الاحمر رمقت فورونتسوف رمقة عابرة ثم تركزت من جديد على اذنى فرسه .

ولما ركب فورونتسوف والحاج مراد مع بطانتهمـــــا عائدين الى الحصن تجمع الجنود الذين اخلوا من الخطـــــوط شراذم وابدوا تعليقاتهم الخاصة .

ــ « اى عدد وفير من الرجال افنى هذا الفتى الملعون ! فانظر الآن مع ذلك اى شان خطير يجعلونه له ! » .

ــ « طبيعى . لقد كان يد شامل اليمنى . والآن ــ زال الخوف » .

ــ « غير انه لا سبيل الى الانكار رغم هذا بانه فتى مهذب ــ انه شهم وفارس مغوار لا يلحق (١) » .

ــ « الرجل الاحمر ! انه ينظر شزرا كالوحش ! » .

ــ « اوخ ! لابد من ان يكون ضروا ! » (٢) .

ولحظوا كلهم الرجل الاحمر بصفة خاصة .

ومن المكان الذى كان يجرى فيه تقطيع الاشجار جرى الجنــود الاقربون الى الطـــــريق ليتفرجوا ، وصرخ فيهم ضابطهم ، الا ان فورونتسوف منعه .

ــ « دعهم يلقون نظرة على صديقهم القديم » .

---

(١) فى الاصل Dzhigit والزغيت بين الششنيين كالشهم بين الهنود ، غير ان الكلمة تتصل اتصالا وثيقا بفكرة الفروسية المبرزة .

(٢) الضرو بكسر فسكون كلب الصيد ومنها « الضارى » .

واضاف وهو يستدير نحو اقرب جندى ويخرج الكلمات على مهل الهجته الانجليزية : « تعرف من هذا ؟ » .

ــ « كلا يا صاحب السعادة » .

ــ « الحاج مراد ... سمعت عنه ؟ » .

ــ « كيف لم نسمع عنه يا صاحب السعادة ؟ لقد هزمنا كثيرا ! » .

ــ « أجل ، ولقينا منه متاعب جمة كذلك » .

ــ « نعم ، هذا حق يا صاحب السعادة » بهذا أجاب الجنــــدى مغتبطا . بان يحادث رئيســه » .

وفهم الحاج مراد انهم كانوا يتحــــدثون عنه فابتسم بعينيه ابتسامة مشرقة .

وعاد فورونتسوف الى الحصن وهو اشد ما يكون ابتهاجا .

- ٦ -

سر فورونتسوف الشاب سرورا عظيما انه ـ لا غيره ـ هو الذى كسب واستقبل الحاج مرادا اعدى اعداء روسيا واكثرهم نشاطا بعد شامل . ولم يكن حول هذا الأمر ما يكدر الا شيء واحد : وهو ان قيادة الجيش فى فوزد فيزهتك انعقدت للقائد مللر زاكوميلسكى وكان ينبغى ان يجرى الأمر جميعه عن طريقه . ولما كان فورونتسوف قد اجرى كل شيء بنفسه دون ان يبلغه اليه فربما يثير ذلك شيئا من الخلاف ، وكادت هذه الفكرة تشوب سروره . فلما بلغ بيته عهد بطانه الحاج مراد الى ملازم الفرقة وقاد بنفسه الحاج مرادا الى داخل المنزل .

واستقبلت الاميرة مارية فاسيلفنة (الانيقة الباسمة) وابنهـا الصغير (وهو طفل ظريف جعد الشعر فى السادسة من عمره) الحاج مرادا فى غرفة الجلوس : ووضع الاخير يده على قلبه وقال فى وقار ـ عن طريق المترجم الذى دخل معه ـ انه يعتبر نفسه اخا فى العهد للأمير منذ انزله فى بيته وان اسرة أخى العهد جميعها مقدسة مثله تماما .

وقد اعجب مارية فاسيلفنة هيئة الحاج مراد وسلوكه . وزاد انعطافها اليه انه احمر وجهه عندما مدت اليه يدها الرحبة البيضاء . فدعته الى الجلوس ، وبعد ان سألته . هل يشرب القهوة قدمت له شيئا منها ولكنه امسك عنها عندما احضرت . وكان يفهم الروسية شيئا ما ولكنه لم يستطع ان يتكلمها . وكان يبتسم كلما قيل شيء لم يفهمه . وكانت ابتسامته تروق مارية فاسيلفنة كمـا تروق بولتوريتسكى . اما الصبى الصـغير (الجعـد الشعر ذو العينين الثاقبتين الذى كانت امه تدعوه بولكا) فقد وقف الى جوارها ولم يحول نظره عن الحاج مراد وقد سمع الناس يصفونه دواما بانه محارب عظيم .

وترك فورونتسوف الحاج مرادا مع زوجته وذهب الى مكتبه ليقوم بما ينبغى نحو ابلاغ حادث مجيئة الى الروس . وبعد ان كتب تقريرا

الى القائد الذى يتولى قيادة الجناح الأيسر (وهو القائد كوزلوفسكى فى جروزنى) وكتابا الى والده أسرع فورونتسوف الى المنزل خشية من تعصب زوجه منه لانه فرض عليها هذا الغريب الرهيب الذى ينبغى له معاملة « خالية » من الاساءة ، ولكنها مع ذلك ليست بالغة الرفق غير ان مخاوفه لم تكن فى محلها ، فقد كان الحاج مراد جالسا فى كرسى ذى متكأ (وبولـكا الصـغير ابن زوج فورونتسوف على ركبته) يصغى فى انتباه ـ ورأسه مائل ـ الى المترجم الذى كان يترجم له كلمات مارية فاسيلفنة الضاحكة . وكانت هذه تقول له بانه ان ظل يهدى اخاه فى العهد كل ما يروق مما فى يده فسيطوف عما قريب على غرار آدم .

وعندما دخل الامير نهض الحاج مراد من فوره ـ وفاجأ بولكا وضايقه برفعه من فوق ركبته ـ ثم استبدل بالتعبير المداعب الذى على وجهه تعبيرا آخر جهما رزينا . ولم يجلس ثانية الا بعد ان انتهى فورونتسوف من الجلوس .

وجاوب مارية فاسيلفنة وهو يتم حديثه معها بأن فى شرعة قومه ان اى شيء يعجب به اخوك فى العهد ينبغى ان يهدى اليه .

« ابنك يا اخا العهد ! » قال هذا بالروسية وهو يمسح راس الصبى الجعد الشعر الذى عاد فتسلق ركبته .

وقالت مارية فاسيلفنة لزوجها بالفرنسية : « ان لصك لمدهش ! » اعجب بولكا بخنجره فأعطاه اياه .

وارى بولكا اباه الخنجر ، فأضافت بالفرنسية : « هذا شيء ذو قيمة » .

فقال فورونتسوف بالفرنسية : « يجب أن نترقب فرصة نقدم له فيها هدية » .

وجلس الحاج مراد ـ غاضا طرفه ـ يمر بيده على شعر الصبى الجعد وهو يقول بالتترية : « شهم مفوار ، شهم مفوار » .

وقال فورونتسوف وهو يستل النصل المرهف ذا الحافة تحت منتصفه : « خنجر جميل جميل ، اشكرك ! » .

وقال للمترجم : « استفهم منه عما يسعنى ان اصنع له » .

وترجم المترجم فأجاب الحاج مراد من فوره بأنه لا يرغب فى شيء ، ولكنه يرجو ان يقاد الى مكان يستطيع ان يؤدى فيه الصلاة .

ونادى فورونتسوف وصيفه واخبره بان يعمل بما يريده الحاج مراد .

ولم يكد الحاج مراد يخلو الى نفسه فى الغرفة التى خصصت له حتى تبدل وجهه ، فاختفى التعبير الرضا ، الرقيق آونة المهيب اخرى ، وبرزت نظرة قلق . لقد لقيه فورونتسوف احس بكثير مما قدر ولكن كلما حسن اللقــاء قلت ثقة الحاج مراد فى فورونتسوف وضباطه . انه ليخاف كل شيء : ان يقبض عليه ويصفد (١) ويرسل الى سيبيريا أو يكتفى بقتله ، وعلى ذلك اخذ حذره . وسأل الدار ـ عندما دخل هذا الاخير ـ اين وضع مريدوه وهل نزع عنهم سلاحهم واين الخيل . فقرر الدار أن الخيل فى اصطبل الأمير وان الرجال اودعوا الانبار (٢) وانهم استبقوا سلاحهم وأن المترجم يقــدم لهم الطعام والشاى .

وهز الحاج مراد يده فى شك . وبعد أن خلع ملابسه صلى وقال لالدار ان يجيئه بخنجره الفضى . ثم ارتدى ملابسه وشد حزامه وجلس على (الديوان) ـ ورجلاه مطويتان تحته ـ يترقب ما عسى أن ينزل به .

وفى الرابعة بعــد الظهر جاء المترجم يدعوه الى ان يتغـدى مع الأمير .

ولم يكد يأكل فى غدائه شيئا غير الأرز الذى تناوله من الطبق بل من المكان ذاته الذى تناولت منه مارية فاسيلفنة نفسها .

ولاحظت مارية فاسيلفنة لزوجها : يخاف أن نسممه ، ولذا تناول نفسه من المكان الذى تناولت منه نفسى ، ثم استدارت توا صوب الحاج مراد واستفهمت منه عن طريق المترجم عن موعد صلاته التالى :

فرفع الحاج مراد خمسة اصابع واشار الى الشمس : « يحين الميقات بعد برهة يسيرة » . وسحب فورونتسوف ساعته وضغط على زمبرك فدقت الرابعة والربع .

(١) صفده « من باب ضرب » : اوثقه وشده بالحديد او غيره .
(٢) النبر كالبئر وجمعه الانبار : مخزن الحاصلات الزراعية التى يسمونه « شونة » .

ودهش الحاج مراد بالطبع وسأل ان يسمعها من جديد وان يؤذن له فى النظر الى الساعة .

فقالت الاميرة لزوجهـــا بالفرنسية : « هاك الفرصة ، اعطه الساعة » .

وفى الحال قدمها فورونتسوف الى الحاج مراد .

ووضع الاخير يده على صدره واخذ الساعة . ولمس الزمبرك مرات عديدة مصغيا والطرق رأسه موافقا .

وبعد الغداء اعلن حضور ياور مللر زاكو ميلسكى .

واعلم الياور الامير بأن القائد ـ وقد سمع بوصول الحاج مراد ـ استاء اشد الاستياء لان هذا لم يبلغ اليه ، وقضى بأن يرسل اليه دون ابطاء . فأجاب فورونتسوف بأن أمر القائد واجب الطاعة ، وابلغ هذه الاوامر ـ عن طريق المترجم ـ الى الحاج مراد وطلب اليه أن يذهب بصحبته الى مللر .

ولما سمعت مارية فاسيلفنة سبب حضور الياور فهمت توا ان سوء تفاهم قد ينشأ بين زوجها والقائد فقررت ـ رغم كل محاولات زوجها ان يثنيها عن ذلك ـ ان تذهب معه ومع الحاج مراد .

(بالفرنسية) « خير لك ان تبقى ، وهذا شأنى لا شأنك ... » .

(بالفرنسية) « ليس فى مقدورك ان تمنعنى من الذهاب لزيارة زوج القائد » .

ـ « يسعك ان تذهبى فى وقت آخر » .

ـ « ولـكنى اريد ان اذهب الآن ! » .

ولما لم يكن بد من التســليم وافق فورونتسوف وذهب ثلاثتهم جميعا .

ولما دخلوا قـاد مللر فى ادب يقبض النفس مارية فاسيلفنة الى زوجه وقال لياوره ان يدخل الحاج مراد غرفة الاستقبال والا يدعه يخرج حتى يصدر اليه أوامر جديدة .

وقال لفورونتسوف وهو يفتح باب مكتبه ويدعو الأمير الى الدخول قبله : « تفضل ... » .

ولما دخل المكتب توقف تلقاء فورونتسوف وقال له دون أن يدعوه الى الجلوس :

ـ « انا القائد هنا ، وعلى هذا فكل المفاوضات مع العدو ينبغى ان تجرى عن طريقى ! فلماذا لم تبلغنى أن الحاج مرادا قد وصل ؟ » .

فاجاب فورونتسوف وقد اخذ وجهه يشحب من الاستفزاز متوقعا أن يسمع من القائد الغاضب بعض التعبيرات القاسية وقد أصابته فى الوقت نفسه عدوى الغضب : « جاءنى رسول واعلن رغبته فى التسليم لى وحدى » .

ـ « انا اسالك لماذا لم احط علما ؟ » .

ـ « كان فى نيتى ان اخبرك يا ايها البارون ولكن .. » .

ـ ليس لك ان تنادينى بـ (يا أيها البارون) وانما بـ (يا صاحب السعادة !) . وهنا انفجر فجاة غيظ البارون المكظوم ونطق بكل ما كان يضطرم فى نفسه منذ وقت طويل :

ـ « انا لم اخدم مليكى طوال سبعة وعشرين عاما لكى ياتى رجال بدءوا خدمتهم أمس ـ مستندين الى اتصالات الأسرة ـ ويصدروا اوامرهم تحت انفى بالذات فى أمور لا شان لهم بها ! » .

فاعترض فورونتسوف : « أسالك يا صاحب السعادة الا تتفوه باشياء ليست صحيحة ! » .

فقال القائد وهو أكثر انفعالا : « انما اقول ما هو صحيح ، ولن اسمح ... » .

وفى تلك اللحظة دخلت مارية فاسيفلنة ولارفالها (١) حفيف تتبعها سيدة صغيرة متواضعة الهيئة وهى زوج مللر زاكوميلسكى .

فبدات مارية فاسيلفنة : « رويدك رويدك أيها البارون ! لم يقصد سيمون أن يسىء اليك » .

ـ « لست اتكلم فى هذا ايتها الأميرة ... » .

ـ « حسنا حسنا ، فلتنس الامر برمته ... وانت تعلم ان (الصلح

(١) الرفل بكسر فسكون : النصف الاسفل من ثوب المرأة .

الردىء خير من الخصام الجيد !) ... أوه يا عزيزتى ما هذا الذى اقوله ؟ » وضحكت .

وسلم القائد الغاضب لضحكة الحسناء الساحرة ، وترددت ابتسامة تحت شاربه .

وقال فورونتسوف : « اعترف باننى اخطات ولكن ... » .

فقال مللر : « وانا ايضا خرجت عن طوقى » ـ ومد يده الى الامير .

وعقد الصلح من جديد ! وتقرر ترك الحاج مراد مع القائد مؤقتا ثم ارساله الى قومندان الجناح الأيسر .

وجلس الحاج مراد فى الغرفة المجاورة ، ورغم أنه لم يفهم ما قيل فانه أدرك ما لزم أن يدرك . ذلك أنهما كانا يتجادلان فى أمره ، وأن هجره شاملا أمر بالغ الأهمية للروس ، وانهم من اجل هذا لن يكتفوا بعدم نفيه او قتله وحسب بل سيكون فى وسعه ان يطلب اليهم الكثير . وفهم ايضا ان نفوذ مللر زاكوميلسكى ـ رغم انه الضابط الذى يباشر القيادة ـ لا يعدل نفوذ مرءوسه فورونتسوف ، وأن فورونتسوف كان ذا خطر ومللر زاكوميلسكى غير ذى خطر ، وبناءعلى هذا فعندما أرسل مللر فى طلبه واخذ يستجوبه اظهر الحاج مراد كبرياء وترفعا قائلا انه اتى من الجبال ليخدم القيصر الابيض وانه لا يقدم حسابا لغير السردار ـ يعنى القائد العام الأمير فورونتسوف (الكبير) فى تفليس .

- ٧ -

نقل أفديف الجـــــــريح الى المستشفى (وهو مبنى خشبى سقفه ألواح ، مكانه عنـــد مدخل الحصن) ووضع على احد السرر الخالية بالقسم العام . وكان هذا القسم يضم اربعة من المرضى : واحدا مصابا بالتيفوس وحرارته عالية ــ وآخر شاحبا تحت عينيه ظلال قاتمة وفيه قشعريرة ، وكان يتوقع نوبة أخرى ويتثاءب تثاؤبا متصلا ــ واثنين غيرهما جرحا فى غارة منذ ثلاثة اسابيع ، احدهما فى يده وكان واقفا والثانى فى كتفه وكان جالسا على سرير . وباستثناء المريض بالتيفوس حفوا (١) جميعهم القادم الجديد والذين جاءوا به ووجهوا اليهم الاسئلة .

فقص احد الحملة (٢) : « يطلقون النار احيانا كانما يطلقون عليك حمصا (٣) فلا يحدث شىء . . . وفى هذه المرة لم يطلق الا نحو خمس رصاصات » .

ــ « يلدرك كل امرىء ما يرسله له القدر ! » .

« اه » وتأوه افديف فى صوت عال محاولا ان يسيطر على الالم عندما بدءوا يضعونه على السرير .

ولكنه امسك عن الانين عندما صار فوقه ولم يزد على ان يوالى تقطيب وجهه وتحريك قدميه ، وأبقى يديه فوق جرحه وركز نظره امامه .

وجاء الطبيب وامر بتقليب الجريح على وجهه ليرى هل اخترقت الرصاصة ظهره .

واستفهم : « ما هذا ؟ » مشيرا الى الندبات البيضاء التى تقاطعت على ظهر المريض وحقويه » (٤) .

فاجاب افديف وهو يئن : « حدث هذا منذ زمن طويل يا حضرة المحترم ! » .

(١) حفوه وحفوا به « بتشديد الفاء المفتوحة » : أحاطوا به او طوقوه .
(٢) حملة بفتح الميم جمع حامل .
(٣) حمص بكسرة فشدة مفتوحة .
(٤) الحقوان : الخصران او بيت الكلاوى .

وكانت هذه ندبات تخلفت عن الجد الذى عوقب به أفديف لقاء المال الذى جرعه .

وقلب أفديف من جديد وسبر الطبيب معدته وقتا طويلا ووجد الرصاصة ولكنه عجز عن استخراجها ، فوضع على الجرح ضمادا (١) والصق عليه لزاقا وانصرف . على ان افديف رقد طوال الوقت الذى كان الطبيب فيه يسبر الجرح ويضمده يطبق اسنانه ويغمض عينيه ، ولكنه بعد انصراف الطبيب فتحهما وتطلع من حوله كانه دهش . ودار بعينيه على المرضى الآخر وعلى (مراسلة) الجراح وان بدا انه لا يراهم وانما يرى شيئا آخر يبلغته .

ودخل صديقاه بانوف وسروجن ، الا ان افديف ظل يرقد فى الوضع نفسه ناظرا أمامه فى دهشة ، وانقضى وقت طويل قبل أن يميز زميليه وان شخصت عيناه اليهما واسا .

قال بانوف : « اسمع يا بطرس ، اليست لديك رســـالة تود أن ترسلها الى ذويك ؟ » .

ولم يجب أفديف وان حدج ببصره فى وجه بانوف .

فاعاد بانوف ثانية وهو يمس يد أفديف المريضة العظم الباردة : « اقول ، اليست لديك طلبات ما تبلغها للذويك ! » .

وبدا ان افديف يستفيق .

ــ آه . . . بانوف ! » .

ــ « نعم انا هنا . . . لقد جئت ! اليس عندك شىء تبلغه الى ذويك ؟ فسيكتب سروجن خطابا » .

فقال افديف وهو يحـــرك عينيه فى صعوبة صوب سروجن :

ــ « سروجن ، اكانت انت ؟ . . اذن فاكتب هكذا ، قل : (ولدكم بطرس اصدر امرا بان يطول بقاؤكم (٢) وانه يحســد اخاه) . . اخبرتك اليوم بهذا . . (وهو شخصيا جد سعيد الآن فلا تنزعجوا من اجله . . . دعوه يعيش ، وليهبه الله عمرا مديدا . انا مغتبط) اكتب هذا » .

وبعد ان قال ذلك صمت بعض الوقت وعينـــــــاه تتركزان على بانوف .

(١) ضمد « من باب فتح ونصر » الجرح وضع عليه الضـــــمد بكسر ففتح وهو القماش الذى يشد عليه . اما « اللزاق » التى بعدها فهو ما يسمونه باللزقة .
(٢) تعبير شعبى معناه أن مرسل الرسالة قد توفى فعلا .

وسال فجاة : « و هل وجدت غليونك ؟ » ولم يجب بانوف .
فردد افديف : « غليونك ... غليونك ! اعنى ، هل وجدته ؟ »
ـ « كان فى حقيبتى » .
فقال افديف : « تماما ! .. حسنا ، والآن اعطنى شمعة أحملها .. ساموت » .
فى تلك اللحظة بالضبط جاء بولتوريتسكى ليسال عن جنديه .
وقال : « كيف الحال يافتاى ! سيىء ؟ » .
واقفل افديف عينيه وهز راسه بالنفى . وكان وجهه العريض لخدين شاحبا عبوسا . ولم يجب ولكنه قال لبانوف من جديد :
ـ « احضر شمعة .. ساموت » .
ووضعت شمعة مستدقة الطرف فى يده الا ان اصابعه لم تنثن ، فوضعت فى خلالها ثم أوقفت له .
وانصرف بولتوريتسكى ، وبعد خمس دقائق وضع (المراسلة) اذنه على قلب افديف وقال ان كل شيء قد انتهى .
ووصفت وفاة افديف فى التقرير الذى ارسل الى تفليس كما يلى :
« ٣ من نوفمبر » ـ تقدمت جماعتان من فرقة الكورين من الحصن فى تجريدة للاحتطاب . وفى منتصف النهار حمل على المحتطبين عدد وفير من الجبليين . وبدأ الرماة يتراجعون ، ولكن الجماعة الثانية هجمت بالسنجة وقهرت الجبليين . وفى هذه العملية اصيب عسكريان بجراح بسيطة ومات واحد . وكانت خسائر الجبليين نحو مائة ما بين قتيل وجريح .

- ٨ -

فى اليوم الذى توفى فيه بطرس افديف فى المستشفى بفردفزهنسك كان يدرس الشوفان على ارضية الدراس المتجمده من الصقيع ابوه العجوز مع زوج الاخ الذى تطوع بطرس فى الجندية بدلا عنه ومع ابنة ذلك الاخ التى ناهزت الأنوثة وكادت تبلغ سن الزواج .
وكان قد نزل فى الليلة السابقة ثلج غزير تبعه قرب الصباح صقيع قاس . واستيقظ الرجل العجوز عند صياح الديكة المرة الثالثة ولما رأى ضوء القمر الزاهى من خلال الواح زجاج النوافذ نزل من فوق الفرن ولبس حذاءه وسترته المصنوعة من فراء الغنم وطاقتيه وذهب الى ارضية الدراس وبعد ان اشتغل هناك ساعتين عاد الى الكوخ وايقظ ابنه والمراة . وعندما ذهبت المراة والفتاة الى ارضية الدارس وجدتا ان ما عليها قد تم حصده بمجرفة خشبية مستقرة فى الثلج الأبيض اليابس ، وكان الى جانبها مكانس من شجر التنبولا اغصانها الى اعلى وصفان من بكر الشوفان ملقى متماس السنابل سطرا طويلا على طول ارضية الدراس جميعها . فاختاروا مضاربهم وبدءوا الدراس منسقين ضربهم الثلاثى . وكان الرجل العجوز يضرب فى قوة بمضربه الثقيل مقطعا القش ، والفتاة تضرب السنابل من اعلاها ضربات منتظمة ، وزوج الابن تقلب الشوفان بمضربها .
وافل القمر وأخذ الفجر يطلع ، وكانوا فى سبيل صف البكر حين انضم اليهم فى الدراس الولد الأكبر (حكيم) فى فروته الفنمية وطاقيته .
فصاح ابوه به مستأنيا فى عمله مستندا الى مضربه : « فيم تتسكع متواكلا ؟ » .
ـ « كانت الخيل فى حاجة لأن يفحص عنها » .
فردد الوالد مقلدا اياه ساخرا منه : « خيل يفحص عنها ! ستعنى المراة العجوز بها .. خذ مضربك ! انك تزداد بدانة ايها السكير » .
وتمتم الابن : « هل تنفق على ! » .

فقال الرجل العجـــوز وهو يقطب فى تجهم ويفوت ضربه .
ـ « ماذا ؟ » .

وتناول الولد مضربه فى صمت ، وبدءوا الدراس بمضـــارب اربعة .

وصار المضرب الثقيل للرجل العجـــوز يهبط فى اثر الثلاثة الاخر : « تراك ، تبتام ... تراك ، تبتام ... تراك ...

ـ « حسنا . لك قفا كاقفية السادة الاماجد ! » .

ـ « انظر الى ، ان سراويلى لا تكاد تجد شيئا تتعلق به » . هكذا قال الرجل وقد فوت ضربته الا انه هز مضربه فى الهواء حتى يتخلف عنهم .

واتموا الصف واخذت المراة ترفع القش بالمجرفة .

ـ « كان بطرس احمق عندما ذهب بدلا عنك ، وكان عليهم فى الجيش ان يصلحوا حالك ولقد كان يعدل فى المنزل خمسة من امثالك ! » .

فقالت زوج الابن وهى تلقى جانبا العصائب التى تخلفت عن البكر : « كفى يا ابت » .

ـ « نعم ، فانا اطعم ستتكم ولا اظفر بعمل ما من ايكم ! لقد اعتاد بطرس أن يقوم بعمل رجلين ولم يكن مثل ... » .

واتت زوج العجوز من البيت على طول الممر المطروق ، والثلج المتجمد يصر تحت الحذاءين الجديدين المصنوعين من لحاء (١) الشجر اللذين لبستهما فوق عصائب رجليها الصوفية الملفوفة لفا مطبقا . وكان الرجال يجرفون اكداس الحبوب المذراة ، والمراة والفتـــاة تكنسـان ما تخلف .

قالت المراة العجوز : « جاء شيخ الكنيسة وهو يامر الجميع بان يذهبوا ويشتغلوا لصاحب الارض وينقلوا الطوب على العربة ... لقد اعددت طعام الافطار . هلموا ، الستم فاعلين ؟ » .

فقال الرجل العجوز لحكيم : « فليكن ... أسرج الكميت (٢) واذهب ، والاولى بك ان تحرص على الا تسبب لى المتاعب كمـا فعلت ذلك النهار ... ولا يسعى الا أن آسف على بطرس ! » .

ورد حكيم على الاهانة بقوله : « لقد درجت على أن تتهره عندما

(١) لحا الشجرة يلحوها : قشرها .
(٢) الكميت من الخيل للمذكر والمؤنث ما كان لونه بين الاسود والاحمر وهو تصغيرا اكمت والجمع كمت بضمتين .

كان هنا ، فلما نأى أصبحت لا تفتأ تنكد عيشي أنا ! » .

فقالت امه فى مثل ذلك الاسلوب الساخط : « يدل هذا على انك تستأهل ، ولن تعدل بطرسا قط » .

فقال الابن : « اوه ، فليــكن » .

ـ « بالتاكيد فليكن ، جرعت الاكلة وتقول الآن (فليكن) ! ؟ .

فقالت زوج الابن : « ما فات مات ! » .

وكان الخـــلاف بين الاب والابن قد بدأ منذ زمان طويل ، منذ انخرط بطرس فى سلك الجندية على وجه التقريب . وقد شعر الرجل العجوز ـ حتى فى ذلك الوقت ـ بانه استبدل بالنسر واقا . صحيح ان من العدل ـ من وجهة نظر الرجل العجوز ـ ان يحل رجل ليس له ولد محل رجل ذى اسرة ، وكان لحكيم اولاد اربعة ولم يكن لبطرس ولد ، ولكن بطرسا كان كثير العمل كابيه ، بارعا احوذيا (١) قويا جلدا ، فلقد كان يعمل دواما . واذا حدث ان مر بقوم يعملون مد اليهم يد المساعدة ـ كما قد يصنع ابوه ـ وانجز بالمنجل دورة او دورتين او وسق عربة او جندل شجرة او شقق بعض الخشب ولقد ندم الرجل العجوز على رحيله ولكن لم يكن من ذلك بد ، اذ كان التجند فى تلك الايام يعدل الموت ، والجندى كالغصن المبتور ، والتفكير فيه بين اهله كشق قلب المرء فى غير طائل . وانمـــا كان الاب يذكره فى بعض المناسبات ـ كما فعل اليوم ـ ليخز ولده الاكبر . وكثيرا ما فكرت الام فى ولدها الاصغر ، وطفقت منذ امد طويل ـ منذ اكثر من عام ـ تسـال زوجها ارسال قليل من النقود الى بطرس ولكن الرجل العجوز لم يكن يجيب .

لقد كان آل كورنكوف اسرة مستورة ، وكان لدى الرجل العجوز بعض المال المدخر المخبـــوء ، الا انه لم يكن ليرضى بحال ان يمس ما خبأ . مهما يكن ، فقد اعتزمت المراة العجوز الآن ـ وقد سمعته يذكر ولدهما الأصغر ـ ان تساله من جديد أن يرسل اليه روبلا على الاقل بعد بيع الشوفان . وهكذا فعلت ، فلم يكن الشباب يذهبون ليعملوا لصاحب الارض ويخلو العجوزان كل منهما الى الآخر حتى اغرته على أن يرسل لبطرس روبلا من ثمن الشوفان .

وعلى هذا فعندما رزم (٢) ستة وتسعون بوشكلا (٣) من الشوفان

(١) الاحوذى : الحازم السريع فى كل ما حققه .
(٢) رزم الشىء : جمعه وشده .
(٣) البوشل : مكيال يتسع لـ ٣٦½ لترا .

المذرى (فى ثلاث من زحافات الجليد المبطنة بالزكائب) يشبك فى عناية بعضها الى بعض من أعلى أسياخ خشبية ، عند هذا سلمت زوجها خطابا ــ كان كاهن الـكنيسة قد كتبه وفق املائها ــ ووعد الرجل العجوز بأن يضمنه روبلا ويرسله الى العنوان الصحيح وذلك عند بلوغه المدينة .

وارتدى الرجل العجوز فروة غنم جديدة يعلوها عطاف غزل فى البيت ، ولف حول رجليه عصائب صوفية خاصة بذلك دافئة بيضاء واخذ الخطاب واودعه محفظة جيبة ، وردد دعاء ، وركب زحافة الجليد الأمامية وســـاق الى المدينة ، وساق حفيده الزحافة الأخيرة . ولما بلغ الرجل العجوز المدينة سأل صاحب الفندق ان يقرأ عليه الخطاب واصغى اليه فى انتباه وتأييد .

بدات والدة بطرس فى خطابها بارسال بركانها اليه ثم بتحيات الجميع وبنبأ وفاة اشبينه (١) ، وأضافت فى النهاية ان أسكينيا (زوج بطرس) لم تشأ أن تلبث معهم وانما ذهبت لتشتغل حيث سمعوا أنها تعيش عيشا مستقيما طيبا ، ثم وردت اشارة الى هدية الروبل ، واخيرا رسالة املتها المراة العجوز ــ اذعانا لحزنها ــ والدموع فى عينيها ، قيدها كاهن الكنيسة فى دقة كلمة فكلمة : ــ

ــ « وأزيد شيئا واحدا ــ أى طفلى الحبيب ، اى يمامتى الحلوة ، اى صغيرى بطرس ! لقد ذرفت عينى رثاء لك يا نور عينى . لمن تركتنى ؟ ... » . وعند هذه النقطة انتحبت المراة العجوز وبكت وقالت : « يكفى هذا ! » هكذا استقرت الكـلمات فى الخطاب ، ولكن لم يقدر لبطـــرس ان يتسلم نبأ رحيل زوجه عن البيت ولا هدية الروبل ولا كلمات أمه الأخيرة . وعاد الخطاب يتضمن النقود مع الخبر بأن بطرس لقى مصرعه فى الحرب « وهو يدافع عن قيصره ووطنه والملة الأرثوذكسية » ــ هكذا أعرب كاتب الجيش .

فلما وصل هذا النبأ الى المراة العجوز طفقت تبكى كلما استطاعت ان تدخر وقتا ثم تشرع فى العمـــل من جديد . وفى يوم الأحد التالى مباشرة قصدت الى الكنيسة وجعلتهم يرتلون جنازا ويدرجون اسم بطرس بين أولئك الذين يصلى على أرواحهم ، ووزعت على كل الناس الطيبين قطعا من خبز القربان تذكارا لبطرس خادم الله .

بكته فى صوت عال كذلك ارملته أسكينيا عندما نعى اليها زوجها المحبوب الذى لم تعش معه غير سنة واحدة قصيرة . وقد حزنت

(١) الاشبين : كفيل المعمد ، والكلمة من الدخيل .

على زوجها وعلى حياتها التى تحطمت ، وذكرت فى عويلها خصل شعرها الحمراء الداكنة وحبه وكدر حياتها مع يتيمتها فانكا ، ولامت بطرس فى مرارة على انه اشفق على اخيه ولم يشفق عليها بتاتا ــ انها ستهيم مرغمة بين الأغراب .

ولكن اسكينيا فى أعماق نفسها سرتها وفاة زوجها ، اذ كانت حاملا المرة الثانية من مستخدم فى حانوت كانت تعيش معه ، ولن يكون لأحد الآن الحق فى ان يزجرها ، وسيتيسر له « أن يتزوج منها » كمـا قال انه سوف يفعل عندما كان يغريها بالاستسلام .

- ٩ -

بما ان ميخائيل سمينوفتش فورونتسوف هو ابن السفير الروسي فقد تعلم فى انجلترا وتوفر على تربية اوروبية فوق العادة الى حد بعيد بين الموظفين الروس فى ايامه . وكان طموحا ودمثا رءوفا فى معاملته مرءوسيه ورجل بلاط بمعنى الكلمة مع الرؤساء وهو لم يفهم الحياة دون سلطان وخضوع وقد حاز أعلى المراتب والاوسمة وكان ينظر اليه على انه قائد ماهر بل نابليون فى كريستو (١) .

وكان فى سنة ١٨٥٢ قد نيف على السبعين الا أنه كان صغيرا بالاضافة الى سنه . وكان نشيط الحركة وله قبل كل شىء عقل طيع ممحص رضى استخدمه ليثبت سلطانه واقتداره ويزيد فى حب الناس له . وكان عريض الثراء من دخله ودخل زوجه (التى كانت فيما مضى كونتيسة من أسرة براتيتسكى) ذا مرتب ضخم بوصفه نائبا للقيصر ، وقد صرف جزءا كبيرا من ثروته فى تشييد قصر وتخطيط حديقة على الشاطىء الجنوبى للقرم .

وفى مساء اليوم الرابع من ديسمبر سنة ١٨٥٢ وقفت زحافة مندوب أمام قصره فى تفليس . واجتاز الطنف الواسع ضابط متعب اسود الوجه من التراب ، أرسله القائد كوزلوفسكى بنبأ استسلام الحاج مراد للروس ، دخل باسطا عضلات رجليه المتصلبة لدى مروره على الديدبان . وكانت الساعة السادسة وقد هم فورونتسوف بالدخول للعشاء حين علم بوصول المندوب ، فاستقبله من فوره ولذا تأخر عن العشاء دقائق معدودات .

فلما دخل بهو الاستقبال اتجهت اليه انظار الاشخاص الثلاثين المدعوين الى العشاء الذين كانوا جالسين الى جانب الأميرة اليزابث كشافيريفنة فورنتسوفة او واقفين جماعات الى جوار النوافذ ، وكان فورونتسوف يرتدى سترته الحربية السوداء المعتادة باشرطة الكتف دون (الاسبلايط) ويلبس على رقبته وسام الصليب من طبقة سان جورج .

(١) كريستو بلدة تقع على بعد ثلاثين ميلا جنوبى غربى سمولنسك هزمت فيها ساقة جيش نابليون الاول فى نوفمبر سنة ١٨١٢ فى اثناء تقهقرها من موسكو وقد ورد ذكر ذلك فى « الحرب والسلام » .

وكان وجهه التام الحلاقة ، الثعلبى الشكل قد علته ابتسامة حلوة وهو يدور بعينين مشرفا على الحفل ، ولما دخل بخطى سريعة رفيقة اعتذر للسيدات لتاخره وحيا الرجال ودنا من الأميرة منانة أوربلياني (وهى امراة فارعة رقيقة وسيمة شرقية الهيئة فى نحو الخامسة والاربعين) وقدم لها ذراعه ليستصحبها الى العشاء . واعطت الأميرة اليزابث كشافيريفنة فورنتسوفة ذراعها الى قائد احمر خشن الشوارب كان يزور تفليس ، وقدم امير من جورجيا ذراعه الى الكونتيسة شوازول صديقة الأميرة فورنتسوفة ، وتبع هذه الثنائيات التى فى المقدمة الدكتور اندريفسكى والياور وآخرون مع سيدات او من دونهن وسحب خدم يلبسون الحلل الخاصة وسراويل حتى الركبة — كراسى الاضياف واعادوها الى مكانها لدى جلوسهم بينما كان كبير النذل يغرف فى احتفاء حساء تتصاعد أبخرته من « سلطانية » فضية .

واتخذ فورونتسوف مكانه يتوسط احد جوانب المائدة المستطيلة وجلست زوجه فى مواجهته ، والقائد الى يمينها . والى يمين الأمير جلست عقيلته أوربلياني الجميلة ، والى يساره امرأة من جورجيا رشيقة ذات خدين خمريين تتالق بالجوهر ولا يفتر ثغرها عن الابتسام .

قال فورونتسوف (بالفرنسية) اجابة على استفهام زوجه عن الاخبار التى وافاه بها المندوب : « حسنة طيبة يا عزيزتى الغالية لقد واتى شيمون الحظ » . واخذ يتحدث بصوت عال لكى يتسنى لكل واحد سماع الخبر المدهش (بالاضافة اليه وحده لم يكن الخبر مفاجئا كل المفاجأة اذ ان المفاوضات كانت دائرة منذ أمد طويل) : الا وهو ان الحاج مرادا — اشجع ضباط شامل واشهرهم — اسلم نفسه الى الروس وسيجاء به بعد يوم أو يومين الى تفليس .

فصمت الجميع واصغوا حتى شباب (الياوران) والموظفين الذين جلسوا فى الاطراف البعيدة للمائدة والذين كانوا يتضاحكون من شىء فيما بينهم .

وعندما انهى الأمير حديثه ، سالت الأميرة جارها — القائد الاصهب (١) ذا الشوارب المنفوشة — « وانت أيها القائد ، الم تلق قط هذا الحاج مرادا ؟ .. » .

(١) الاصهب : الذى به حمرة أو شقرة ، وفى الاصل الانجليزى : « الجزرى » :

— « اكثر من مرة أيتها الاميرة » .

ومضى القائد يصف كيف ان الحـــاج مرادا — بعد ان استولى الجبليون على جرجبيل عام ١٨٤٣ — انقض على فصيلة القائد بالن وقتل أمير الالاى زولوتوخن امام اعينهم جميعا .

واصغى فورونتسوف الى القائد وابتسم فى لطف ، وقد سره على ما يبدو ان الاخير قد اشترك فى الحديث . الا ان وجهه نم فجأة على انه شارد الفكر مكتئب .

وما بدأ القائد يتكلم حتى اخذ يتحدث عن لقـــائه الثـــانى مع الحاج مراد .

قال القائد : « نعم ، لقد كان هو — اذا تفضلتم سعادتكم بان تتذكروا — الذى دبر ذلك الكمين الذى حمل على فوج الانقاذ فى تجريده (البسكوت) .

فسال فورونتسوف وهو يجيل عينيه : « أين ؟ » .

اما الذى أطلق عليه القائد الشجاع اسم (الانقاذ) فهو ما جرى فى غارة دارجو المشئومة التى فيها كادت تهلك يقينا فصيلة كاملة ، ومعها الأمير فورونتسوف الذى كان يقودها ، لو لم ينقذها وصول جنود جديدة .

ولقد عرف كل امرىء ان تجريدة دارجو بقيادة فورونتسوف — التى خسر فيها الروس كثيرا من القتلى والجرحى ومدافع عديدة — كانت عملية مخزية . وعلى هذا فلئن تحدث عنها اى انسان فى حضرة فورونتسوف فانمـا يفعل ذلك على الوجه الذى أبلغه هو الى القيصر فى تقديره وهو انها عمل عظيم باهر قام به الجيش الروسى . أما كلمة (الانقاذ) فتشير فى وضوح الى انها لم تكن نصرا باهرا بل خطأ سبب فقــــد أرواح عديدة . فهم الجميع ذلك ، فتظاهر بعضهم بانهم لم يفطنوا لكلمات القـــائد ، وتريث آخرون مضطربين ليروا ما يتلو ، بينما تبادل آخرون اللمحات مبتسمين . والقـــائد الأصهب ذو الشارب الأشعث هو وحده الذى لم يلحظ شيئا ، فاجاب — وقد جرفته رواية قصته :

— « لدى الانقاذ يا صاحب السعادة » .

وانطلق القائد فى موضوعه المفضل فسرد مع ذكر القرائن كيف شق الحاج مراد فى مهارة الفصيلة شقين على حالة تأتى معها انه لو لم يصل فوج الانقاذ (وقد بدا انه اولع بصفة خاصة بتكرار كلمة « انقاذ »)لمـا افلت من الفرقة رجل واحد : بسبب ... ولم يتم

القصة . لان منانة أوبرلياتى — وقد فهمت ما يجرى — اعترضته بان سألته هل وجد اماكن مريحة فى تفليس . فبهت القائد وتطلع حوله الى كل واحد ورأى ياوريه من آخر المـائدة ينظرون اليه بنظرات مصوبة ذات معنى ، ففهم فجأة ! ومن دون ان يجيب على سؤال الاميرة تجهم وامســك عن الـكلام وطفق يزدرد على عجـل اللذائذ الموضوعة على طبقه التى حيره منظرها وطعمها .

وشعر الجميع بالحرج ولكن انقذ الموقف الأمير الوافد من جورجيا وهو رجل بالغ الغباء ولكنه رجل بلاط وملاق يجيد فنه الى حـد غير عادى وكان يجاور الأميرة فورونتسوف من الناحية الأخرى . فقد بدا يقص — من دون ان يلوح عليه انه فهم اى شىء — كيف قتل الحاج مرادا ارملة احمد خان المختولى .

— « جاء الى القرية مساء واغتصب ما اراد اغتصابه وعدا راجعا مع الفوج كله » .

فسألت الأميرة : « ولماذا رغب فى تلك المراة بالذات ؟ » :

— « آه ، كان خصما لزوجها ، وتعقبه ولكنه لم يظفر قط بلقائه الى وقت وفاته ، فثار لنفسه من ارملته » .

وترجمت الأميرة هذا بالفرنسية لصديقتها القـــديمة الكونتيسة شوازول التى جاوزت الأمير الجورجى .

فقالت الكونتيسة بالفرنسية وهى تغمض عينيها وتهز راسها :

— « يا للفظاعة ! » .

وقال فورونتسوف باسما : « كلا كلا ! لقـــد انبئت بانه عامل اسيرته باحترام نبيل وانه اطلق سراحها بعد ذلك » .

— « نعم ، لقاء فدية ! » .

— « أجل بالطبع ، ولكنه الى ذلك كان شريفا فى تصرفه » .

ووجهت كلمات فورونتسوف (هذه) الحديث الى الاتجاه التالى اذ فهم الجلساء انه كلما نسب الى الحاج مراد من علو الشان ازداد الامير غبطة .

— « ان جسارة الرجل لمذهلة ، انه رجل جليل الشان » .

— « نعم ، لقد انقض عام ١٨٤٩ على تميرخان شورى ونهب الحوانيت فى رائعة النهار » .

وقص رجل ارمنى يجلس فى طرف المائدة — كان اذ ذاك فى تميرخان شـــــورى تفاصيل هذا العمل الباهر الذى قـــام به الحاج مراد .

وكان الحاج مراد فى الواقع هو الموضوع الوحيد للحديث فى اثناء الغداء جميعا .

وقد امتدح الجميع على التوالى شجاعته واقتداره ونخوته ولقد ذكر بعضهم أنه امر بقتل ستة وعشرين اسير ولكن ذلك ايضا قوبل بالرد المعتاد . « وماذا كان يصنع ؟ (ثم بالفرنسية) الحرب هى الحرب ! » .

ـ « انه رجل عظيم » .

ـ « لو ولد فى أوربا لجاز ان يكون نابليونا آخر » . هكذا قال الأمير الجورجى الغبى الذى يملك موهبة التملق . فهو يعلم ان كل ذكر لنابليون محبب لدى فورونتسوف الذى يلبس عند عنقه الصليب الابيض مكافاة على قهره اياه .

فقال فورونتسوف : « حسنا ، ربما لا يكون نابليونا ولكن قائدا شهما للفرسان اذا شئت » .

ـ ان لم يكن نابليونا فليكن (مرا (١)) .

ـ « واسمه الحاج (مراد) ! » .

ولاحظ شخص ما :« استسلم الحاج مراد ، والآن سينتهى شامل ايضا » .

ولاحظ آخر : « يشعرون الآن » (والآن هذه تعنى : فى عهـــد فورونتسوف) « بأن ليس فى وسعهم ان يثبتوا » .

وقالت منـــــانة اوربلية بالفرنسية : « والفضل فى ذلك كله لـكم » .

وحاول الأمير فورونتسوف ان يلطف موجة الملق التى اخـــذت تفيض عليه وان كانت من دواعى غبطته ، وعاد يقود عقيلته الى بهو الاستقبال وهو فى أسمى حالات الاغتباط .

وعندما قدمت القهوة فى بهو الاستقبال ـ بعد العشاء ـ كان الأمير ظريفا فوق العادة مع الجميع ، ولما وصل الى القائد ذى الشوارب الحمراء المنفوشة حاول أن يظهر كأنمـــا لم يتنبه الى غلطته .

وبعد ان دار دورة على الأضياف جلس الى منضدة لعب الورق واقتصر على اللعبــة العتيقة (أمير (٢)) ليس غير . وكان شركاؤه الأمير الجورجى وقائد ارمينى (تعلم لعبة الأمير من وصيف الأمير

(١) Murat زوج كارولين بونابارت قائد فرنسى عظيم .
(٢) Ombre لعبة من العاب ورق الشدة .

فورونتسوف) والدكتور اندريفسكى وهو رجل اشتهر بما له من نفوذ عظيم .

وبعد ان القى الأمير مسعطه (١) الذهبى الذى يحمل على غطـائه صور اسكندر الأول (٢) مزق غلاف رزمة من ورق اللعب المصقول صقلا ممتازا وشرع ينشرها حين حمل له وصيفه الايطالى جيوفانى خطابا فوق صينية من الفضة .

ـ « بريد آخر يا صاحب السعادة » .

فالقى فورونتسوف أوراق اللعب واعتذر وفض الخطاب واخذ يقرا .

وكان الخطاب من ولده الذى وصف استسلام الحاج مراد ولقاءه الخاص للر زاكوميلسكى .

وجاءته الأميرة واستفهمت عما كتبه ولدهما .

« كله عن الموضوع نفسه » ثم قال بالفرنسية : « حدثت له مع حاكم المنطقة بعض الخلافات ، لقد كان سيمون مخطئا » واضاف بالانجليزية : « كل ما ينتهى نهاية حسنة فهو حسن » مناولا زوجه الخطاب ، ثم استدار الى شركائه المنتظرين فى احترام وسالهم أن يسحبوا ورقا .

ولمـا فرق ورق اللعب اول مرة صنع فورونتسوف ما اعتاد ان يصنعه كلما كان مبتهج النفس خاصة : اخذ تنشيقة من السعوط الفرنسى وحملها الى أنفه بيده البيضاء المتغضنة الهرمة ثم ارسلها .

(١) المسعط والمسعط : علبة النشوق .
(٢) قيصر روسيا حكمها بين ١٨٠١ و ١٨٢٥ قهـره نابليون بونابرت وعقد معه صلح تلست وفى عهده فيما بعد سنة ١٨١٢ اضطر تساقط الثلج الغزير نابليون الى التقهقر .

- ١٠ -

هندما حضر الحاج مراد الى قصر الامير فى اليوم التالى كان بهو الاستقبال قد غص بالنـــــاس . وكان قائد الامس ذو الشوارب المنفوشة قد جاء الى هناك بكامل لبسه الرسمى وكل اوسمته ليستاذن فى السفر . وكان هنـــاك قائد فرقة مهدد بالمحاكمة امام مجلس عسكرى لاختلاسه اموال الميرة وكان هناك ثرى ارمنى (يرعاه الدكتور اندريفسكى) يسعى لكى تجدد له الحكومة احتكاره بيع الفودكا . وكانت هناك فى ثياب سوداء ارملة ضابط قتل فى الحرب ، وقد وفدت لتطلب معاشا او تعليم بنيها مجانا . وكان هناك امير جورجى مفلس يرتدى لباسا جورجيا فاخرا يسعى للحصول لنفسه على بعض عقار الكنيسة المصادر . وكان هناك موظف يحمل لفيفة عريضة من الورق تضم مشروعا جديدا لاخضاع القوقاز . وكان هنـــاك كذلك (خان) قد جاء يبغى غرضا واحدا ، وهو أن يخبر قومه فى وطنه بانه عرج على الامير .

وانتظر كل منهم دوره ، وكان يدخلهم ــ الواحد تلو الآخر ــ ويخرجهم منه ثانية الياور ، وهو شاب وسيم اشقر .

ولمـا دخل الحاج مراد بهو الاستقبال بمشيته النشيطة وان تكن عرجاء اتجهت صوبه جميع العيون ، وسمع اسمه همسـا من نواحى الغرفة المختلفة .

وكان يلبس سترة شركسية طويلة بيضاء فوق مشلح احمر داكن (يزينه حول طوقه) (١) شبائك (٢) من الفضة و (طوزلوق) اسود وحذاءين طريين من اللون نفسه ينبسطان على ظاهر قدميه كانهما قفازان وعلى راسه طاقية حولها قماش كالعمامة ــ وهذه هى العمامة ذاتها التى قبض عليه من اجلها ــ بعد أن وشى به احمد خان ــ القائد كلوجناو والتى كانت سببا فى ذهابه الى شامل .

(١) الرقبة او النبقة « الياقة » .
(٢) شبائك اى على شكل « الدنتل » .

مشى فى نشـــاط عبر ارضية بهو الاســـتقبال المـــكسوة بالخشب الثمين (١) وقوامه الاهيف جميعا يترجرج هونا ما نتيجة لعرجه برجل واحده كانت اقصر من الاخرى ، وعيناه اللتان ركبتا ــ بعيدة كل منهما عن الاخرى ــ تنظران قدامه فى هدوء ويبدو انهما لا تريان احدا .

حياه هذا الياور الوسيم وساله أن يجلس بينما يذهب هو ليعلن قدومه الى الامير . غير أن الحاج مرادا ابى أن يجلس ، ووضع يده على خنجره ووقف ، مقدما احدى قدميه ، يدور بنظره ازدراء على الحاضرين جميعا .

ودنا مترجم الامير ــ الامير طرخانوف ــ من الحاج مراد وتحدث اليه فكان يجيب فى اقتضاب وفى غير رغبة . وخرج من غرفة الامير امير من كوميك اتى الى هناك ليودع شكاة ضد احد موظفى الشرطة ، وبعد ذلك دعا الياور الحاج مرادا وقاده الى باب المكتب وادخله .

واستقبل القائد العام الحاج مرادا ، واقفا الى جوار منضدته ، ولم تعل وجهه الابيض العجوز ابتسامة الامس بل كان اقرب الى التجهم والجد .

وعندما دخل الحاج مراد الغرفة الفسيحة ، بمنضدتها الضخمة ونوافذها الكبيرة ، ذوات استار البندقية (٢) الخضراء ضم يديه الصغيرتين اللتين لوحتهما الشمس الى صدره تماما حيث يتراكب مقدم سترته البيضاء . ثم غض طرفه وبدا مستانيا يتكلم فى وضوح واحترام باللهجة الكوميكية التى يتقن الـكلام بها .

قال : « انى اضع نفسى تحت حماية القيصر الاكبر وتحت حمايتك واتعهد بأن اخدم القيصر الابيض فى ايمان وصدق الى آخر قطرة من دمى . وارجو ان انفعـكم فى محاربة شـامل الذى هو عدوى وعدوكم » .

ولمـا ترجم المترجم بصوت مسموع رنا فورونتسوف الى الحاج مراد ورنا الحاج مراد الى فورونتسوف .

(١) اى الباركيه .
(٢) البندقية فينزيا : ميناء ايطالى مشهور بطراز جميل من الفنون .

والتقطت اعين الرجلين وتبادلت التعبير عن أبلغ مما يستطاع صوغه فى كلمات . ولم يكن هذا قط ما قاله المترجم ، فقد قال كل منهما لصاحبه الحقيقة جميعا بغير لغة الكلام : قالت عينا فورونتسوف انه لم يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله الحاج مراد . وانه يعلم بانه (الحاج مراد) كان — وسوف يكون دائما — عدوا لكل روسى ، وبأنه لم يذعن الا مكرها . فهم الحاج مراد هذا واستطرد مع ذلك يؤكد ولاءه . وقالت عيناه : « كان ينبغى لهذا الرجل العجوز ان يفكر فى وفاته لا فى الحرب ، وهو داهية برغم شيخوخته وعلى ان اكون حذرا » . وفهم فورونتسوف هذا ايضا ولكنه مع ذلك تحدث الى الحاج مراد بالاسلوب الذى حسبه ضروريا لكسب الحرب .

قال فورونتسوف : « قل له ان مليكنا رحيم بقدر ما هو شديد ، وقد يعفو عنه بناء على رجائى ، ويضمه الى خدمته » ... وسال وهو ينظر الى الحاج مراد : « اخبرته ؟ » ... والى ان يردنى القرار الكريم من مولاى ، قل له انى أقطع على نفسى ان استقبله وأن أجعل اقامته بيننا رضية » .

فضم الحاج مراد يديه وسط صدره وبدا يقول كلاما وهو متحمس .

وترجم المترجم : « يقول انه ـ عندما سبق له حكم افاريا عام ١٧٣٩ ـ خدم الروس باخلاص ولم يكن ليتخلى عنهم قط لولا ان عدوه احمد خان اراد ان يمحقه فوشى به لدى القائد كلوجينا » .

قال فورونتسوف (ولو انه كان قد علم اطلاقا لنسى من امد بعيد :) « عارف عارف » واعاد وهو يجلس موجها الحاج مراد الى (الديوان) القائم الى جوار الحائط : « عارف » . غير أن الحاج مراد لم يجلس بل هز منكبيه القويتين اشارة الى انه لا يستطيع أن يحمل نفسه على الجلوس فى حضرة رجل خطير مثله ، واستطرد يخاطب المترجم :

ـ « احمد خان وشامل كلاهما عدوى. قل للأمير أن احمد خان مات وليس فى وسعى ان اثار لنفسى منه . اما شامل فحى ولن اموت دون ان انتقم لنفسى منه » . قال هذا وعقد حاجبيه واحكم اقفال فمه .

قال فورونتسوف فى هدوء للمترجم : « نعم ، نعم ، ولكن كيف يود ان يثأر لنفسه من شامل ؟ وقل له بأن يتفضل بالجلوس » .

وابى الحاج مراد مرة اخرى ان يجلس . وقال اجابة على السؤال : ان هدفه من المجىء الى الروس هو مساعدتهم على اهلاك شامل .

قال فورونتسوف : « عظيم عظيم ، ولكن ما الذى يود فعله بالضبط ؟ ... اجلس اجلس ! » .

فجلس الحاج مراد وقال : « لو انهم فقط ارسلوه الى خط لسفيا واعطوه جيشا لضمن ان يثير كل داغستان ، ولن يستطيع شامل المقاومة بعد ذلك » .

قال فورونتسوف : « سيكون هذ بديعا ... سأفكر فى الامر » .

وترجم المترجم كلمات فورونتسوف للحاج مراد .

وتدبر الحاج مراد .

وبدا الحاج مراد من جديد : « بقى ان تقول للسردار شيئا واحدا وهو ان اسرتى بين يدى عدوى ، وما داموا فى الجبال فانا مقيد ولا تسعنى خدمته ، ولو جهرت بمحاربتى شاملا فسيقتل زوجى وامى واطفالى. فليبادل الأمير اولا اسرتى بمن لديه من اسرى وسأهلك بعد ذلك شاملا أو أهلك انا » .

فقال فورونتسوف : « طيب طيب ، سأفكر فى الامر .. والآن فليذهب الى رئيس أركان الحرب وليوضح له مركزه ومقاصده ورغباته تفصيلا » .

وعلى هذا النحو انتهى الحديث الاول بين الحاج مراد وفورونتسوف .

وفى تلك الامسية كانت تمثل أوبرا ايطالية فى دار التمثيل الجديدة التى اخذت زخرفتها وازينت على الطراز الشرقى . وكان فورونتسوف فى مقصورته عندما لاح فى المقاعد الخلفية الشكل

الاخاذ للحاج مراد الظالع (١) يلبس عمامته ، وقد دخل مع لوريس ميليكوف (٢) (ياور فورونتسوف) الموكل به ، وجلس فى مقعد بالصف الاول . وبعد ان جلس فى اثناء الفصل الاول وعليه المهابة الاسلامية الشرقية دون ان يبدى سرورا بل أبدى عدم اكتراث بين ، نهض ونظر حوله فى هدوء الى المتفرجين وخرج مسترعيا الى نفسه نظر الجميع .

وكان اليوم التالى يوم اثنين ، وقد اقيمت الوليمة المسائية المعتادة لدى آل فورونتسوف . وكانت تعزف فى الايوان الفسيح المشرق بالضياء جوقة تحجبها الاشجار . واخذ نساء صغيرات ونساء لسن جد صغيرات ــ يلبسن حللا تستعرض اعناقهن واذرعهن ونهودهن العارية ــ اخذن يدو من ويدو من فى احضان رجال يرتدون بذلات رسمية بهية . وفى المقصف اخذ ندل ــ يلبسون سترا (٣) حمراء لا ذيل لها واحذية وسراويل الى الركبة ــ يسكبون الشمبانيا ويقدمون الحلوى للسيدات . وطافت عقيلة السردار بين الأضياف ــ نصف عارية كذلك برغم سنها ــ تبتسم فى بشاشة . وعن طريق المترجم قالت كلمات قليلة انيسة للحاج مراد الذى رمق الأضياف بمثل ما اظهره فى دار التمثيل امس من عدم الاكتراث . وفى اثر المضيفة جاءت اليه نساء نصف عاريات ووقفن جميعا امامه فى غير استحياء ، يسألنه باسمات السؤال نفسه الى حد أعجبه ما رأى ؟

واتى اليه فورونتسوف نفسه ــ يلبس (اسبلايت) وانشوطتين ذهبيتين على كتفيه والصليب الابيض والوشاح على جيده وساله السؤال نفسه . كان طبيعيا ان يشعر يقينا كالآخرين بأن الحاج مرادا لا يسعه الا ان يسر بما رأى . الا أن الحاج مرادا أجابه بمثل ما اجابهم به جميعا : ذلك أن شيئا من هذا لا يجرى بين قومه ، دون أن يبدى رايا : أقبيح هو على تلك الصورة أم حسن .

---

(١) ظلع « من باب فتح » غمز فى مشيته .

(٢) هو الكونت ميخائيل ثار بيلوفتش لوريس ميليكوف الذى عين فيما بعد وزيرا للداخلية وصاغ الدستور الحر الذى وقعه القيصر اسكندر الثانى يوم اغتياله .

(٣) ستر « بضم ففتح » جمع سترة « بضم السين » وهى ما يستتر به . والمقصود هنا الجاكتات ..

وهنا فى المرقص حاول الحاج مراد ان يتحدث الى فورونتسوف عن شراء اسرته ، غير أن فورونتسوف تظاهر بأنه لم يسمعه ومشى بعيدا . واخبر لوريس ميليكوف الحاج مرادا بعد ذلك بأن هذا ليس المكان المناسب للتحدث فى شئون العمل .

وعندما دقت الساعة الحادية عشرة واستوثق الحاج مراد من الزمن بالساعة التى اعطاه اياها فورونتسوف سأل لوريس ميليكوف هل يستطيع ان ينصرف ، فأجاب بأن فى وسعه ان يفعل وان كان الأولى أن يبقى . ورغم هذا لم يبق الحاج مراد بل انطلق بـ (الفيتون) (١) الذى وضع تحت تصرفه الى النزل الذى خص له .

---

(١) مركبة مكشوفة بسيطة .

- ١١ -

وفى اليوم الرابع من اقامة الحـــاج مراد بتغليس جاء لوريس ميليكوف ـ ياور نائب القيصر ـ ليراه بناء على امر الاخير .

فقال الحاج مراد فى اسلوبه السياسى المعتاد وهو يحنى راسه ويضم يديه الى صدره : « يسر راسى ويدى ان يخدما السردار » :
وقال وهو يرنو فى ايناس الى وجه لوريس ميليكوف : « مرنى ! » :

جلس لوريس ميليكوف فى كرسى (فوتى) موضوع الى جانب المنضدة والحاج مراد فوق اريكة منخفضة قبالته واسند يديه فوق ركبتيه وحنى راسه واصغى فى انتباه الى ما يقوله له الآخر .

اخبره لوريس ميليكوف ـ الذى يتكلم اللسان التترى فى طلاقة ـ بأن الامير ، وان علم بما مضى من حياته ، يرغب فى أن يسمع القصة كلها منه شخصيا .

ـ « خبرنى بها ، وساكتبها وانقلها الى اللغة الروسية وسيرسلها الأمير الى الامبراطور » .

وظل الحاج مراد صامتا هنيهة (انه لم يقاطع قط اى انسان وانما كان دواما ينتظر ليرى هل عند محدثه شيء آخر يريده) . ثم رفع راسه وهز طاقيته الى وراء ، وابتسم تلك الابتسامة الخاصة التى تشبه ابتسامة الطفل التى سلبت لب مارية فاسيلفنة .

فقال : « يسعنى ان اصنع هذا » وكان واضحا أن قد ازدهته فكرة ان الامبراطور سيقرأ قصته .

قال لوريس ميليـكوف وهو يسحب من جيبــه دفتر المذكرات :
ـ « عليك أن تقص على (فى اللسان التترى لا يخاطب احد بصيغة الجمع) كل شيء فى ترو من البداية » .

فقال الحاج مراد : « يسعنى ان اصنع هذا ، غير ان عندى كثيرا ـ كثيرا جدا ـ أقوله ! لقد جرت وقائع كثيرة ! » .

قال لوريس ميليكوف : « أن لم يسعك ان تقصها كلها فى يوم واحد فستتمها فى وقت آخر » .

ـ « أابدأ من البداية ؟ » .

ـ « اجل ، من اول البداية .. اين ولدت واين عشت » .

حنى الحاج مراد راسه واطرق مليا ثم تناول عصا كانت ملقاة الى جوار الأريكة ، وسحب من تحت خنجره سكينا صغيرا ذا مقبض عاجى مطعم بالذهب ماضيا كالموسى ، واخذ يشذب به العصا ويتكلم فى الوقت نفسه .

وبدأ : « اكتب : ولد فى تسيلميس وهى محلة صـــــغيرة (فى حجم رأس الحمار) على حد تعبيرنا فى الجبال . وعلى كثيب منها ـ على بعد طلقتين من طلقـــــات المدفع ـ تقع خانزاخ حيث اقـام (الخانات) (١) وكانت اسرتنا وثيقة الارتباط بهم » .

وعندما ولد اخى الاكبر عثمان ارضعت امى ابا النزال خان اكبر (الخانات) (٢) سنا ثم ارضعت الابن الثانى (خان (٣) الأمة خان) وربته ولكن مات احمد أخى الثانى ، ولما ولدت الخان شاه(٤)بولادخان لم تشأ امى ان تعود مرضعا له وامرها أبى بالذهاب ولـكنها ابت قائلة : « لن اذهب والا قتلت مرة اخرى ولدى انا » فما كان من أبى ـ وكان سريع الانفعال ـ الا ان طعنها بخنجر وكاد ان يقضى عليها لو لم يخلصوها منه ، وعلى هذا لم تتخل عنى ، وفيما بعد نظمت اغنية ... ولكن لا حاجة بى لان احدثك عن ذلك .

قال لوريس ميليكوف : « كلا ، عليك أن تخبرنى بـكل شيء ضرورى » .

واوغل الحاج مراد فى التفكير ، وتذكر كيف كانت أمه ترقده لينام بجوارها تحت سترة من الفراء على سطح الدارة ، وتذكر سؤاله اياها ان تريه الموضع من جانبها الذى ما تزال ندبة جرحها ظاهر به .
وردد الأغنية ـ وقد تذكرها :

« نفذ نصل الصلب اللامع فى صدرى ـ ولـكنى ضممت فوقه مباشرة ولدى المشرق،ولدى الغالى ، حتى اغتسل جسده فى مجرى دمى ـ ثم برىء الجرح دون الاستعانة باعشاب او حشائش .
وكما انى لا أهاب الموت ، كذلك ولدى لن يهابه ابد الدهر » .

واضاف : « وامى الآن فى يدى شامل ويجب انقاذها » ... وتذكر النبع الذى فى سفح الجبل وقتمـا استمسك بسراويل امه التركية الفضفاضة (٥) ورافقها فى طلب الماء .. وتذكر كيف حلقت

(١) الخان : كلمة دخيلة تطلق على نوع من الامراء .
(٢ و ٣) الخان : كلمة دخيلة تطلق على نوع من الامراء .
(٤) الخان شاه : حرم الخان ..
(٥) واسمها الاصيل « شاروفيرى » .

له راسه أول مرة وكيف ادهشه انعكاس صورة رأسه (المستدير الضارب لونه الى زرقة) على الاناء النحـــــاسى اللامع الذى تعلق بالحائط ... وتذكر كلبا اعجف كان يلعق وجهه ... وتذكر رائحة الـ « بديشكى » (١) الغريبة الذى كانت امه تعطيه اياه ـ رائحة الدخان واللبن الحامض ـ وتذكر كيف كانت امه تحمله فى سلة فوق ظهرها عندما تزور جده بالمزرعة .. وتذكر جده المتغضن بشعيراته الرمادية وكيف كان يطرق الفضة بيديه المسمورتين (٢) .

قال وهو يهز رأسه هزة : « حسنا ، وهكذا لم تذهب امى بوصفها مرضعا ، واستخدمت الخان شاه مرضعا اخرى ولكنها ظلت مغرمة بأمى التى اعتادت أن تستصحبنا نحن الأطفال الى قصر الخان شاه حيث كنا نلعب مع اطفالنا ، وكانت مغرمة بنا كذلك .

وكان هنا ثلاثة (خانات) صغار : « ابو النزال خان وهو اخ فى الرضاعة لشقيقى عثمان ، وامه خان وهو اخى فى المهد ، وبولادخان وهو الأصغر الذى طوح به شامل فى الوهدة ، غير أن ذلك حدث فيما بعد » .

كنت فى السادسة عشرة عنـــدما بدا المريدون يزورون المحلة . وكانوا يدقون الحجارة بخدب(٣)من الخشب ويهتفون: (ايهاالمسلمون الغزوات) ! » .. ودخل الششنيون جميعا فى مذهب المريدية ، وبدا الافاريون يدخلون فيه كذلك . وكنت اذ ذاك اعيش فى القصر كانى اخ (للاخوان) ، وتسنى لى ان اصنع ما اريد واصبحت غنيا ، وكانت لى خيل واسلحة واموال ، وكنت اعيش للملذات ولم اكن احفل بشىء . وداومت على تلك الحال حتى اغتيل الامام كاذى ملا وخلفه حمزة . وارسل حمزة رسلا الى (الأخوان) ينذرونهم بانه سيدمر خان زاخ ان لم يشاركوا فى الغزوات .

« واحتاج هذا الى تدبر ، (فالاخوان) يخافون الروس ولكنهم كذلك كانوا يخشون المشاركة فى الحرب المقدسة . فاوفدتنى الخان شاه العجوز مع ولدها امة خان الى تفليس لاستعين القـــائد العام الروسى على حمزة . وكان القائد العام الروسى فى تفليس هو البارون روزن . وهو لم يلقنـا لا انا ولا امة خان . بل ارسل يقـــول انه سيساعدنا ، ولكنه لم يصنع شيئا ، وانما جاء الينا ضباطه راكبين

(١) ضرب من الفطير الرحراح .
(٢) المسمور : القليل اللحم الشديد العصب .
(٣) الاحدب : سيف عربى مقوس والجمع بضم فسكون .

ونعبوا الورق مع امة خان وسقوه الخمر وقادوه الى مباءات الفساد ، وخسر لهم فى لعب الورق كل ما كان لديه . نعم ، كان جسد ، فى مثل قوة الثور وكان فى مثل شجاعة الأسد ولكن نفسه كانت فى مثل رخاوة الماء . ولولا انى عدت به لخسر فى الميسر ما بقى له من خيل وسلاح .

« وبعد زيارتى لتفليس تغير رايى واشرت على الخان شاه العجوز (والاخوان) بالمشاركة فى الغزوات ...

فسأل موريس ميليكوف ، « وما حداك الى تغيير رايك ؟ الم تكن راضيا عن الروس ؟ » .

وتوقف الحاج مراد .

ثم اجاب فى تصميم وهو يغمض عينيه : كلا ، لم اكن راضيا . على انه كان هناك ايضا سبب آخر لرغبتى فى المشـــــاركة فى الغزوات » .

ـ « وما كان هذا ؟ » .

ـ « نعم ، بالقرب من تسليمس قابلنا ـ الخان وانا ـ ثلاثة من المريدين فر منهم اثنان ، اما الثـالث فقد اطلقت عليـه النار من غدارتى .

وكان ما يزال حيا عندما دنوت لآخذ سلاحه . فرفع بصره الى وقال : « انت قتلتنى ... انا سعيد بذلك ، ولكنك مسلم وشاب وشديد شارك فى الغزوات ، فهذا ما شاء الله ! » .

ـ « وهل شاركت فيها ؟ » .

فقال الحاج مراد : « لم افعـــــل ، الا ان ذلك حدانى الى التفكير ... » واستمر فى قصته :

ولمـا بلغ حمزة مشارف خان زاخ أوفدنا اليه اشياخنا ليبلغوه اننا نوافق على المشاركة فى الغزوات اذا ارسل الينا الامام عالما يبين لنا ما هى . فـأمر حمزة باشياخنا فحلقت لهم شـــواربهم ونخست خياشيمهم وعلقت فطائر بانوفهم ، وبهذه الحال اعادهم الينا .

« وابلغنا الاشياخ بأن حمزة متاهب لايفاد شيخ يفقهنا فى شئون الغزوات ولـكن بشرط ان ترسل اليه الخان شـاه ولدها الاصغر رهينـــة لديه ، فامنت لـكلامه وارسلت ولـدها الاصـغر بولادخان . واحسـن حمزة استقباله وارسل يدعو الأخوين الكبيرين كذلك ، وبعث يقول : انه يود أن يخدم (الأخوان) كما خدم أبوه اباهم ... وكانت الخـــان شاه امرأة ضعيفة غبية مغرورة كـكل

النساء عندما لا يكن محكومات ، فخافت أن ترسل الولدين كليهما واكتفت بارسال امة خان . ذهبت معه ولقينا مريدون بين وصولنا بنحو ميل ، وانشدوا وأطلقوا النار وحفوا بنا . ولما دنونا خرج حمزة من فسطاطه (1) وذهب الى ركاب سرج أمة خان واستقبله كما يستقبل (الاخوان) . وقال : « انا لم اوذ اسرتك فتيلا ، ولست أرغب فى أن الحق بها اى أذى . فأرجوك فقط الا تقتلنى والا تمنعنى عن اجتذاب الناس الى الغزوات أخدمك بكل جيش كما خدم ابى اباك ! وائذن لى ان اعيش فى بيتك أعينك بمشورتى ، ولتعمل انت ما تشاء » .

كان أمة خان بطىء الكلام ، ولم يعرف كيف يجيب وظل صامتا . اذ ذاك قلت : اذا كان الامر كذلك فليحضر حمزة الى خان زاخ فتستقبله بالتشريف اخن شاه و (الاخوان) ... ولكن لم يسمح لى فى اتمام كلامى . وهنا واجهت شاملا لأول مرة وكان الى جوار الامام . فقال بى : « انت لم تسأل وانما سئل الخان ! » .

فسكت ، وقاد حمزة امة خان الى داخل فسطاطة . وبعدئذ نادانى حمزة وامرنى ان اذهب الى خان زاخ مع رسله فذهبت . وأخذ الرسل يحسنون للخان شاه أن توفد أيضا ولدها الاكبر الى حمزة ورأيت أن هناك غدرا فقلت لها الا توفده ، غير ان المرأة لديها من التمييز بقدر ما لدى البيضة من الشعر ، فأمرت ولدها بالذهاب . ولم يكن ابو النزال يرغب فى ذلك . اذ ذاك قالت : « أرى أنك خائف ! » وعرفت كالنحلة اين تلدغه فى أشد ما يكون الايلام . فاحمر وجه أبو النزال ولم يوجه لها كلاما بعد ، بل أمر بفرسه فأسرج ، وذهبت معه .

ولقينا حمزة بحفاوة اعظم من الحفاوة التى لقى بها أمة خان . وقد خرج هو نفسه راكبا الى مسافة طلقتين من البندقية فى انحدار الجبل ليلقانا . وتبعه فوج من الخيالة ببنادقهم ، وقد أنشدوا واطلقوا النار وحفوا بنا كذلك .

ولما بلغنا المخيم قاد حمزة الخان الى داخل الفسطاط وبقيت انا مع الخيل ...

وكنت على بون ما فى انحدار الجبل عندما سمعت رصاصا يطلق فى خيمة حمزة . فعدوت الى هناك ورايت امة خان يرقد منبطحا فى بركة من الدم ، وكان ابو النزال يقاتل المريدين ، وقد قطع أحد

(1) الفسطاط : الخيمة واصلها البيت من الشعر « بفتح الفين » .

خديه وتدلى . فأسنده بيده ، وبالأخرى طعن بخنجره كل من دنا منه . وقد رايته يصرع اخا حمزة ويسدد طعنة الى رجل آخر ، ولكن اذ ذاك اطلق المريدون النار عليه فسقط » .

ووقف الحاج مراد ، وجرى الدم فى وجهه الملوح احمر قانيا والتهبت عيناه .

« فملكنى الخوف وجريت بعيدا » .

قال لوريس ميليكوف : « أحقا ؟ ... كنت اظن انك لم تخف قط » .

ـ « لم اخف بعد ذلك ... اذ منذ ذلك الوقت تذكرت هذا الخزى دائما ، وكلما عاودتنى ذكراه صرت لا اخشى شيئا » .

- ١٢ -

قال الحاج مراد وهو يسحب من جيب داخلي فى صدر سترته الشركسية ساعة فورونتسوف الدقاقة ويضغط الزمبرك فى عناية : « ولكن بحسبى هذا لقد حان ميقات صلاتى ... ودقت هذه الساعة اثنتى عشرة وربعا ، واستمع اليها الحاج مراد وراسه محنى الى جانب وهو يكظم ابتسامة كابتسامة الطفل » .

وقال باسما : « ساعة اخى فى العهد فورونتسوف » .

فقال لوريس ميليكوف : « ساعة جيدة ، حسنا ، اذهب انت اذن وصل ، وسأنتظر انا » .

قال الحاج مراد : « (تكشى) حسنا جدا وذهب الى غرفة نومه » .

فلما ترك لوريس ميليكوف وحده اخذ يقيد فى دفتر ملاحظاته الهام من الأشياء التى قصها الحاج مراد . ثم اشعل لفيفة تبغ واخذ يتمشى فى الغرفة بخطاه ذهابا وجيئة . ولما بلغ الباب المقابل لغرفة النوم سمع اصواتا متحمسة تتكلم فى سرعة باللسان التترى . وحزر ان المتكلمين هم مريدو الحاج مراد ، ففتح الباب ودخل عليهم .

وكانت الغرفة مشبعة بتلك الرائحة الجلدية الحمضية التى اختص بها الجبليون . وكان جمزالو الأعور ذو الشعر الاحمر يجلس على طيلسان مبسوط على الأرض — فى قميص ودك (١) مهلهل يعقص (٢) لجاما وكان يقول شيئا وهو مهتاج يتكلم فى صوت أجش . فلما دخل ميليكوف صمت من فوره واستطرد يشتغل دون أن يعيره اى التفات . ووقف قبالة جمزالو ، الخان المرح محمد يبين عن اسنانه البيضاء ، وعيناه السوداوان المجردتان عن الاهداب تلمعان ، وقف يقول شيئا يبدىء فيه ويعيد . وكان الدار الوسيم — وكماه مقلوبان الى أعلى فوق ذراعيه الشديدتين — يجلو حزام سرج يتدلى من مسمار . أما حنفى — كبير العمال ومدير الخدم — فلم يكن هناك بل كان يطهو عشاءهم فى المطبخ .

(١) ودك : اى مشحم .
(٢) يعقص : اى يصفر .

وسأل لوريس ميليكوف بعد ان حياهم : « فيم كنتم تتجادلون ؟ » .

فقال خان محمد وهو يمد يده للوريس ميليكوف : « انه ما يزال يستمسك بامتداح شامل . يقول ان شاملا رجل عظيم متفقه وولى وشهم » .

— « وكيف يتأتى ان يهجره ويستمر فى امتداحه مع ذلك ؟ » .

فردد خان محمد ، واسنانه تتجلى وعيناه تلمعان : « لقد هجر شاملا واستمر فى امتداحه مع ذلك » .

وسأل لوريس ميليكوف : « وهل يحسب حقا انه ولى ؟ » .

فعجل جمزالو بقوله : « لو لم يكن وليا ما استمع اليه الناس » .

فأجاب خان محمد : « ليس شامل بولى ، ولكن منصورا كان كذلك ، كان منصور وليا حقا . وعندما كان اماما كان الناس غيرهم الآن . ولقد درج على ان يعبر المحلات راكبا ودرج الناس على أن يخرجوا ويقبلوا أهداب سترته ويعترفوا بخطاياهم ويقطعوا العهود بألا يرتكبوا اثما . واذ ذاك كان الناس قاطبة — هكذا يقول المعمرون — يعيشون كالأولياء ، لا يشربون الخمر ولا يدخنون ولا يهملون صلواتهم ويغفر بعضهم ذنوب بعض حتى عندما تراق الدماء . واذا وجد احدهم — اذ ذاك — نقودا (او أشياء ما) شدها الى وتد ورفعها الى جانب الطريق . ولقد قيض الله للناس فى تلك الأيام الفلاح فى كل شيء — لا كأيامنا هذى » .

قال جمزالو : « فى الجبال الآن لا يدخنون ولا يشربون الخمر » .

وقال خان محمد وهو يغمز بعينه للوريس ميليكوف : « لقد كان شاملك لا موريا » (كانت كلمة « لامورى » تعبير زراية يطلق على الجبليين) .

فأجاب جمزالو : « نعم (لامورى) معناها جبلى ، ولكن الجبل مأوى النسور » .

قال خان محمد متهانفا (١) وقد أعجبه من غريمه رده المناسب :

— « يا لك من فتى بارع ! رمية مسددة » .

فلما بصر خان محمد بالعلبة الفضية للفائف التبغ فى يد لوريس ميليكوف سأله لفيفة . ولما لاحظ لوريس ميليكوف ان التدخين

(١) أهنف : ضحك فى فتور .

محرم غمز بعين واحدة ودفع راسه صوب غرفة نوم الحاج مراد .
واجاب بأن فى وسعهم أن يفعلوا ذلك طالما بعيدون عن الانظار . وبدا من فوره يدخن دون أن يستنشق الدخان وبمط شفتيه الحمراوين فى غير لباقة وهو ينفخه .

قال جمزالو فى حدة : « هذا خطأ » — وزايل الغرفة . وغمز خان محمد بعينه صوبه واستفهم وهو يدخن من لوريس ميليكوف : اين افضل مكان يستطيع أن يباع منه مشلحا حريريا وطاقية بيضاء ؟ .

— « لماذا ، الديك هذا الكثير من النقود ؟ » .

قال خان محمد وهو يغمز بعينه : « لدى ما يكفى » .

فقال الدار وهو يدير وجهه الباسم صوب لوريس ميليكوف :

— « سله من اين جاء بالنقود » .

قال خان محمد عجلا : « آه ، أنا بحاجة اليها ! » وقص كيف صادف — وهويسير فى تفليس فى اليوم السابق جماعة من الرجال — بين روسى وارمينى يلعبون الارلياتكة (ضرب من « الطرة والياظ (١) ») وكان الرهان كبيرا : ثلاث قطع ذهبية وفضة كثيرة .
ورأى خان محمد لتوه مم تتألف اللعبة ؟ وسوس بالنقود المعدنية التى كانت فى جيبه وقصد الى اللاعبين وقال انه يراهن على القدر كله .

وسأل لوريس ميليكوف : « وكيف استطعت أن تفعل ذلك ؟ اكان معك مثل هذا القدر ؟ » .

فقال خان محمد وهو يهتف : « كان معى اثنا عشر كوبكا (٢) ليس غير » .

— « فاذا كنت خسرت ؟ » .

فقال خان محمد مشيرا الى غدارته : « هذه ! » .

— « اكنت تسلم هذه ؟ » .

— « أسلم حقا ! كنت سأفر ، فاذا حاول أحد صدى صرعته ، هذا كل ما فى الأمر ! » .

— « حسنا ، وهل كسبت ؟ » .

— « اى نعم ، كسبته جميعا وانصرفت ! » .

وفهم لوريس ميليكوف كل الفهم اى نوع من الرجال يكون خان محمد والدار . فخان محمد شخص طروب مهمل مهيأ لكل

(١) أى الرهان على وجهى عملة معدنية .
(٢) الكوبك عملة رسمية تساوى مليما .

ضرب من ضروب المرح ، لا يعرف ما يصنع بالنافل (١) من حيويته ، وهو ابدا مبتهج طائش يلعب بحياته وحياة الآخرين ، ومن اجل هذا النوع من الرياضة جاء الى الروس الآن ، ومن اجل هذا النوع نفسه من الرياضة قد يعود الى شامل غدا .

وكان فهم شخصية الدار كذلك من السهولة بمكان ، فهو رجل يدين باكبر الولاء لمرشده ، شديد قوى العزم .

اما جمزالو ذو الشعر فكان الوحيد الذى لم يفهمه لوريس ميليكوف . وقد راى ان هذا الرجل لم يكن يدين بالولاء لشامل وحسب بل كان الى هذا يشعر نحو الروس جميعا بكراهة وازدراء ونفور ومقت لا سبيل الى فصلها عنه . وعلى ذلك لم يكن فى مقدور لوريس ميليكوف أن يفهم لماذا جاءهم . فجال بخاطره ما اراب بعض كبار الموظفين من ان استسلام الحاج مراد وحكاياته عن كراهته شاملا قد تكون باطلة . وانه ربما يكون قد خضع لا لشىء سوى استطلاع مواطن الضعف لدى الروس ، وانه بعد فراره وعودته الى الجبال قد يقدر على أن يوجه قواته بمقتضى ذلك . وقد عززت شخصية جمزالو جميعا هذه الريبة .

وظن ان الآخرين والحاج مرادا نفسه يعرفون كيف يسترون مراقبهم ، ولكن هذا الرجل يفضحهم بكراهته المكشوفة .

وحاول لوريس ميليكوف أن يتحدث اليه ، وساله الم يشعر بملل ؟ فدمدم بصوت اجش دون ان يتوقف عن عمله : «كلا ، لا أشعر بملل!» ولمح سائله من زاوية عينه الوحيدة ، واجاب على سائر اسئلة لوريس ميليكوف الاخرى بما لا يخرج عن ذلك .

وفيما كان لوريس ميليكوف بالغرفة دخل أفار حنفى المريد الرابع للحاج مراد ، وهو رجل ازب (١) الوجه والعنق مقوس الصدر اشعثه كانما هاشت فيه الطحالب . وكان شديدا دؤوبا على العمل دائم الانهماك فى واجباته ، وهو كالدار يطيع سيده طاعة عمياء .

فلما دخل الغرفة ليحضر شيئا من الارز استوقفه لوريس ميليكوف وساله من اين اتى وكم من الزمن ظل فى خدمة الحاج مراد ؟ .

فاجاب حنفى : خمس سنوات ، وانا من المحلة التى هو منها .
وقال فى هدوء وهو ينظر من بين حاجبيه القرونين الى لوريس

(١) مازاد عن اللزوم .
(٢) ازب : أى كثير شعر الوجه .

ميليكوف راسا : « وقد قتل ابى عمه وارادوا قتلى ، فسالتهم ان يتبنونى على اننى اخ » .

ــ « ما تعنى بتبنيك على انك اخ ؟ » .

ــ « لم احلق راسى ولم اقلم اظافرى مدى شهرين ثم جئت اليهم . واذنوا فى دخولى لدى امه فاطمة وارضعتنى من ثديها فاصبحت اخا » .

وامكن سماع صوت الحاج مراد من الغرفة المجاورة ، ولمـا لبى الدار نداءه من فوره نشف يديه لتوه ومشى بخطى واسعة . ودخل بهو الاستقبال .

وقال لدى عودته : « انه يطلب اليك المجىء » .

وناول لوريس ميليكوف لفيفة تبغ اخرى الى خان محمد المرح وذهب الى بهو الاستقبال .

- ١٣ -

ولمـا دخل لوريس ميليكوف غرفة الاستقبال لقيه الحـاج مراد بوجه مشرق .

وسأل وهو جالس مستريح على الأريكة : « والآن ، هل اواصل الحديث ؟ » .

قال لوريس ميليكوف ، « اجل » ، يقينا ، لقد كنت فى الداخل اتحدث الى تابعيك .. واضاف : « واحدهم فتى خفيف الروح » .

فقال الحاج مراد : « نعم ، خان محمد فتى مستهتر » .

ــ « لقد اعجبنى الصغير الوسيم » .

ــ « آه ، ذلك الدار ، انه صغير ولكنه حازم ــ قد من حديد ! » .

وسكتا هنيهة .

ــ « واذن فعلى ان أواصل الحديث ؟ » .

ــ « اجل اجل ! » .

ــ « اخبرتك كيف قتل (الخانات) . حسنا . وبعد ما اغتالهم حمزة ركب الى داخل خانزاخ واتخذ قصرهم مأوى له » .

وكانت الخانشاه هى الوحيدة التى تركت على قيد الحياة . وارسل فى طلبها . فلما عنفته غمز بعينه الى مريده آصلدار الذى طعنها من الخلف وقتلها .

وسأل لوريس ميليكوف : « ولم قتلها ؟ » .

ــ « وماذا كان يسعه ان يصنع ؟ .. حيث تذهب الرجلان الاماميتان يتحتم ان تتبعهما الخلفيتان ! لقد افنى الأسرة قاطبة ، وقد قتل شامل الابن الأصغر . طوح به فى وهدة » ...

ــ « وعلى هذا خضعت كل افاريا لحمزة ، ولكنا ــ انا واخى ــ ابينا ان نخضع . وطلبنا دمه مقابل دم (الخانات) تظـــاهرنا بالخضوع ، ولكن انحصر تفكيرنا فى كيف نظفر بدمه . وراجعنا جدنا وقضينا بأن نترقب الوقت الذى فيه يخرج من القصر ثم نقتله من كمين . وتسمعنا بعضهم وأبلغ حمزة الذى ارسل فى طلب جدى

وقال له : اعلم انه اذا صح ان احفادك يدبرون لى مكروها فستشنق واياهم على رافدة (١) واحدة ، انني اقوم بعمل الله ولن يصدقني احد . اذهب ، وتذكر ما قلته لك ! » .

وجاء جدى الى المنزل واخبرناه .

فحزمنا امرنا على الا نتريث بل نفعل الفعلة بالمسجد فى اول ايام العيد . ولم يشأ رفقاؤنا ان يشاركوا فيها ، ولكنا ــ اخى وانا ــ ظللنا ثابتين .

واخذ كل منا غدارتين وارتدينا برديتنا وذهبنا الى المسجد . ودخل حمزة المسجد ومعه ثلاثون مريدا . وامتشقوا جميعا سيوفا فى ايديهم ، ورآنا آصلدار مريده المفضل الذى قطع راس (الخان شاه) وصرخ فينا ان اخلعا برديتيكما ، واتى صوبى . وكان خنجرى بيدى فصرعته به وانقضضت على حمزة ، غير ان اخى عثمان كان قد سبق فاطلق عليه النار . كان ما يزال حيا وانقض على اخى وخنجره فى يده ولكنى عاجلته بضربة على راسه اجهزت عليه . كان هناك ثلاثون مريدا وكنا اثنين ليس غير ، فقتلوا اخى عثمان ، اما انا فقد صددتهم ووثبت من النافذة ونجوت .

« فلما ذاع ان حمزة قد قتل ثار الناس جميعا وهرب المريدون ، وقتل من لم يهرب منهم » .

وتوقف الحاج مراد وتنفس فى تثاقل .

واستطرد يقول : « كان هذا حسنا جدا ، ولكن فسد كل شيء فيما بعد » .

« وخلف شامل حمزة ، فاوفد الى رسلا يقولون انه ينبغى لى ان الحق به فى مهاجمة الروس ، واذا ابيت فسيدمر خانزاخ ويقتلنى .

« فاجبت باننى لن الحق به ولن ادعه ياتى الى ... » .

فسال لوريس ميليكوف : « ولم لم تذهب معه » .

وعبس الحاج مراد ولم يجب فورا .

« لم اقدر على ذلك ، اذ كانت يداه ما تزالان ملطختين بدم اخى

(١) الرافدة هنا « عرق » خشب يبرز من السقف .

عثمان ودم ابى النزال ، لم اذهب اليه ، فارسل الى القائد روزن (براءة) ضابط وامرنى بان احكم افاريا . وكاد كل هذا ان يكون على ما يرام لولا ان روزن هذا عين بصفة (خان) قاضى كموخ ، اولا محمد مرزا . وبعد ذلك احمد خان الذى يبغضنى . وكان يحاول ان يطلب « السلطانة الصغيرة » الخانشاه زوجا لولده ، الا انها ابت ان تزوجه اياها ، فزعم اننى تسببت فى هذا .. نعم ، لقد ابغضنى احمد خان واوفد اتباعه ليقتلونى ، ولكنى نجوت منهم .

ثم وشى بى لدى القائد كلوجناو فعزا الى اننى اوصيت الافاريين بالا يمدوا عساكر الروس بالخشب ، كما عزا الى اننى لبست عمامة ــ هذه العمامة التى على (ولمس الحاج مراد عمامته) ــ ومعنى هذا اننى انحزت الى شامل . فلم يصدقه القائد وامر بالا يمسنى احد . ولكن لما ذهب القائد الى تفليس صنع احمد خان ما بداله . فارسل سرية من الجند لتقبض على وكبلونى بالاصفاد وربطونى الى مدفع .

واستطرد : « وعلى هذا استبقونى ستة ايام ، وفى اليوم السابع حلوا وثاقى وتاهبوا لياخذونى الى تميرخان شورى . وعهد بامرى لاربعين جنديا مسلحين ببنادق معباة . فاوثقت يداى ، وكنت اعلم انهم مامورون بان يقتلونى اذا حاولت فرارا .

« فلما شارفنا (منسوخة) ضاقت السبيل ، وكانت الى يمينها مهواة قد يبلغ عمقها المائة والعشرين ياردة . فلزمت اليمين حتى حافته واراد جندى ان يمنعنى ، فوثبت الى اسفل وجذبته معى ، فلقى مصرعه من فوره ، ولكنى بقيت حيا كما ترى . وكسرت ضلوعى وراسى وذراعاى جميعا ! وحاولت ان احبو ولكنى شعرت بدوار واخلدت الى النوم . ثم استيقظت يبللنى دمى . ورآنى راع ونادى بعض الناس فحملونى الى المحلة . وبرئت ضلوعى وراسى ، وساقى ايضا وان ظلت قصيرة » . ومد الحاج مراد ساقه الملتوية قائلا : « انها مع ذلك ما تزال فى خدمتى ، وهذا خير » .

« وتسامع الناس الخبر واتوا الى . وبرئت وذهبت الى تسلميس . وبايعنى الافاريون من جديد على ان احكمهم » .

واستطرد يقول فى عجب هادىء مطمئن : « فاجبتهم الى ذلك » .

ونهض عجلا واستخرج حافظة من خرج وسحب منها خطابين حال لونهما وناول لوريس ميليكوف احدهما ، وكانا من القائد كلوجناو ، قرا لوريس ميليكوف الخطاب الأول فيما يلى :

ايها الملازم الأول الحاج مراد . لقد عملت تحت رياستى وكنت راضيا عنك وعددتك رجلا طيبا .

« وقد اخبرنى احمد خان انك خائن وانك لبست عمامة (التبعية لشامل) وتتعامل معه . وانك لقنت الناس أن يخرجوا عن طاعة الحكومة الروسية . فأمرت بالقبض عليك واحضارك الى ولكنك فررت ، ولست اعلم أفى مصلحتك هذا ام لا ، كما لست أعلم امذنب انت ام غير مذنب .

والآن استمع الى : اذا كنت مستريح الضمير ، اذا لم تكن قد ارتكبت وزرا فى حق القيصر العظيم فتعال الى ولا تخش احدا فانا حاميك ، ولن يقدر الخان على أن ينال منك شيئا ، فهو نفسه تحت امرتى ، وعلى هذا فليس لديك ما تخشاه » .

واضاف كلوجناو انه دواما كان مقسطا ويحترم كلمته . ونصح الحاج مراد ان يوافيه .

فلما قرا لوريس ميليكوف الخطاب اخبره الحاج مراد ــ قبل ان يناوله الخطاب الثانى ــ بما كتبه ردا على الأول .

« كتبت بأنى لبست العمامة لا اكراما لشامل وانما لخــلاص نفسى ، وبانى لا أود ان اذهب الى شــامل ولن يسعنى ذلك لانه تسبب فى وفاة ابى واخوتى وذوى قرباى ، غير انى لا استطيع اللحاق بالروس لانهم خدشوا كرامتى (فقد بصق على فى خان زاخ وغد وانا موثق ولن الحق بقومك حتى يقتل ذلك الرجل) ، وباننى قبل كل شىء أخشى ذلك الأفاك أحمد خان » .

وقال الحاج مراد وهو يناول لوريس ميليكوف القرطاس الآخر الذى حال لونه .

وتلا لوريس ميليكوف : « اجبت على خطابى الأول فشكرا لك . تقول انك لا تخشى العــودة وانما تصدك الاهانة التى الحقها بك كافر ما ، وأؤكد لك أن القانون الروسى عادل ، وانك سوف ترى

ذاك الذى جرؤ على الاساءة اليك ينال جزاءه أمام عينيك ، وقــد اصدرت اوامرى فعلا بتقصى الموضوع .

« استمع الى ايها الحاج مراد انا محق فى الا ارضى عنك لانك لا تثق لا بى ولا بشرفى ، ولــكننى اغفر لك اذ اعلم الى اى حد يرتاب الجبليون عموما . فاذا كنت مرتاح الضمير وكنت قد لبست العمامة لا لشىء الا لخلاص نفسك فانت محق ، ولك أن تفتح عينك بجسارة فى عين الحــــكومة الروسية . وأؤكد لك ان ذاك الــذى خــدش كرامتك سيلقى جزاءه وســــترد عليك املاكك وسترى وتعرف ما القانون الروسى . والى هذا فنحن الروس ننظر الى الأمور بمنظار آخر ، وانت لم تسقط فى اعيننا لأن وغدا ما خدش كرامتك .

« وقد ارتضيت شــخصيا ان يلبس الشمرنتيون العمائم وأنا انظر الى عملهم على الضوء الملائم ، وعلى هذا اكرر ان ليس لديك ما تخشاه ، تعال الى مع الرجل الذى يحمل اليك خطابى هذا وهو يخلص لى كما انه ليس موالى اعدائك وانما هو صديق لرجل يتمتع فى الحكومة بحظوة خاصة » .

وفيما يلى ذلك حاول كلوجناو من جديد أن يحمل الحاج مرادا على أن يجىء اليه .

وبعد ما فرغ لوريس ميليكوف من القراءة قال الحاج مراد :
ــ « ولم اصدق كلوجناو ولم اذهب اليه . بل كان اهم ما يهمنى ان اثار لنفسى من احمد خان ، وهذا ما لم استطعه عن طريق الروس . ثم حاصر احمد خان تلميس ورام اسرى او قتلى وكان رجالى اقل من القليل فلم يتيسر لى طرده . وفى ذلك الوقت بالذات جاءنى رسول بخطاب من شامل يعد فيه بعونى على هزيمة أحمد خان وقتله وحكمى افاريا كلها فتبصرت فى الأمر طويلا ثم ذهبت الى شامل ، ومنذ ذلك الوقت حاربت الروس حربا متصلة » .

وهنا اورد الحاج مراد كل مغامراته الحربية التى كانت جد كثيرة والتى كان يعلم بها لوريس ميليكوف تمام العلم . وقد امتازت حملاته وغاراته جميعا بالسرعة غير المألوفة فى حركاته وبالجراة فى هجماته التى كان يتوجها النجاح دائما .

وقال الحاج مراد فى ختام قصته : ولم تكن هناك اية صداقة بينى وبين شامل ، غير انه كان يخافنى ويحتاج الى . ولــكن حدث

اتفاقا ان سئلت عمن سوف يكون اماما بعد شامل فاجبت : (سوف يكون اماما امضانا سيفا) .

ونقل هذا الى شامل وود لو تخلص منى . فارسلنى الى تابصران فذهبت وغنمت الف راس من الضأن وثلثمائة فرس ، فقال اننى لم أصنع صوابا . وعزلنى عن النيابة عنه ، وامرنى بأن ارسل اليه المال كله . فأرسلت اليه الف عملة ذهبية . ثم ارسل مريديه فاخذوا منى كل ما املك . وطلب الى ان اوافيه ، ولكنى كنت أعلم انه يريد قتلى فلم اذهب اليه . ثم ارسل يطلب أسرى فقاومت واسلمت نفسى الى فورونتسوف ، غير انى لم استصحب اسرتى . وامى وازواجى وولدى بين يديه . فقل للسردار بانه ما دامت اسرتى تحت سلطان شامل فما انا بمستطيع شيئا .

قال لوريس ميليكوف : « ساخبره » .

وقال الحاج مراد وهو يختم حديثه : « جاهد ، حاول فى جد ! .. ما كان لى فهو لك ، ولكن أعنى لدى الامير ! فانا مكبل ، ونهاية الحبل فى يدى شامل » .

- ١٤ -

وفى العشرين من ديسمبر كتب فورونتسوف الى شرنيشوف وزير الحربية ، وكان الخطاب باللغة الفرنسية :

« لم اكتب اليك بالبريد السابق ـ ايها الامير العزيز ـ لانى اردت أولا ان ابت فيما ينبغى علينا ان نفعله بالحاج مراد ، ثم انى فى اليومين الاخيرين لم أكن اشعر باننى على ما يرام .

« انبائك فى خطابى السابق بوصول الحاج مراد الى هنا . لقد وصل الى تفليس فى اليوم الثامن ، وفى اليوم التالى تعرفت اليه ، وفى السبعة الايام الاخيرة أو الثمانية تحدثت اليه وفكرت فيما يسعنا ان نفيد منه فيما يستقبل من الزمان وبخاصة فيما علينا ان نصنع به فى الوقت الحاضر اذ انه معنى جدا بمصير اسرته ، ويقول بكل مظاهر الصراحة الكاملة بانهم ما داموا بين يدى شامل فهو مشلول الحركة وليس فى مكنته أن يقدم لنا اية خدمة أو يظهر لنا اى عرفان بجميلنا تلقاء اللقاء الودى والعفو اللذين شملناه بهما .

« وان حيرته فى أمر اولئك الذين يعزهم لتجعله قلقا . ويؤكد لى الأشخاص الذين اخترتهم ليقيموا معه بأنه لا ينام الليل ولا يكاد يأكل شيئا ويتابع الصلاة ، ولا يطلب الا ان يؤذن له فى الركوب الى خارج المدينة يرافقه عديد من القوزاق ، وهذه هى التسلية أو الرياضة الوحيدة الميسرة له والتى اصبحت ضرورية له بحكم العادة طوال حياته . وهو يأتى الى فى كل يوم ليعرف هل لدى أنباء عن اسرته وليطلب الى ان نجمع كل الأسرى الموجودين بين ايدينا ونقدمهم لشامل على سبيل المقايضة بتلك الاسرة ، وهو كذلك على استعداد لان يبذل بعض المال ـ وهناك أناس يمكنون له من الحصول على شىء منه لهذا الغرض . وهو لا يفتأ يعيد على : نج أسرتى واتح لى بعد ذلك الفرصة لاخدمكم . (وفى رايه ان افضل مكان هو خط سفيا) . ولئن لم اقدم لكم خدمات جلى فى خلال شهر واحد ادبونى بما ترونه مناسبا . وانا اجيب : بان كل هذا فيما أرى يبدو عادلا جدا ، وبان كثيرا منا قد يذهبون حتى الى وجوب عدم الثقة

به ما دامت فى الجبال وليست رهينة بين ايدينا واننى ساضع كل
شىء فى مقدورى لجمع الأسرى الموجودين على حدودنا ، وباننى
- حسب قانوننا - لا أملك ان ابذل له ما لا يفدى به أسرته بالاضافة
الى القدر الذى قد يستطيع بشخصه أن يجمعه ، الا أننى قد
استطيع ان اجد بعض الوسائل الأخرى لعونه . وبعد ذلك صارحته
بأن شاملا - فيما ارى - لن يفرط فى الاسرة بحال ، وأن شاملا
قد يقول بذلك صراحة ويعده بعفو تام وبمناصبه السابقة ، وقد
يتوعد الحاج مرادا بقتل امه وازواجه وبنيه الستة ان لم يعد .
وسألته هل يسعه أن يقول فى صراحة ما هو صانع اذا وصله اعلام
كهذا من شامل ؟ فرفع عينيه وذراعيه الى السماء وقال ان كل شىء
بيد الله الا انه لن يذعن لعدوه اذ هو موقن بأن شاملا لن يعفو عنه ،
ولن يعيش طويلا بناء على ذلك . اما عن اهلاك أسرته فهو لا يظن
ان شاملا يتصرف بمثل تلك الرعونة . أولا ليتجنب دفعه الى
ان يصبح بعد عدوا أكثر استماتة وخطرا . وثانيا لان فى داغستان
كثيرين بل اناسا ذوى سلطان عريض يردن شاملا عن مسلك كهذا .
وأخيرا ، اعاد مرارا بانه كيفما كان ما يقضى به الله له فى المستقبل
فهو لا يعنى فى الحاضر بشىء غير فداء أسرته ، وتوسل الى باسم
الله ان أكون فى عونه وان آذن له فى العودة الى ارباض ششنيا
حيث يسعه - بمساعدة قوادنا وموافقتهم - ان يتصل بعض الاتصال
بأسرته وبالأنباء المتواصلة عن حالهم وبأمثل الوسائل لتحريرهم .
وقال ان كثيرين (بل بعض النواب فى تلك المنطقة من أرض العدو)
يخلصون له كثيرا او قليلا وانه سوف يكون من السهل - بمساعدتنا -
بين جميع السكان الخاضعين لروسيا بالفعل او المحايدين - توطيد
علاقات جد نافعة فى ادراك الهدف الذى يحرمه السكينة ليل نهار
والذى يطمئنه بلوغه وييسر له العمل لخيرنا وكسب ثقتنا .
وهو يطلب اعادته الى جروزنى فى ركب من عشرين أو ثلاثين
من القوزاق المختارين ، ينفعونه على أنهم حماته من اعاديه وينفعوننا
على انهم ضمان حسن نيته .
وستدرك ايها الأمير العزيز اننى تحيرت كثيرا بكل هذا لان
مسئولية كبرى تقع على عاتقى بعمل ما أنا فاعل . ولاكونن طائشا
الى أقصى حدود الطيش اذا أمنت له امانا تاما . ولكن - لكى
نجرده من كل وسائل الافلات - علينا أن نحبسه ، وعندى ان هذا
يجافى العدل والسياسة وان أجراء كهذا - ولا مفر من ذيوع خبره

فى كل داغستان - ليلحق بنا ضررا عظيما ، فهو يضيع منا أولئك
الذين يجنحون الآن الى مناواة شامل كثيرا او قليلا ، وكثير ما هم ،
ويضيع منا الذين هم يرقبون فى اهتمام كيف نتصرف مع أكثر
ضباط الامام شهامة ومجازفة بعد ما ألقى نفسه الآن مرغما على
ان يضع نفسه بين ايدينا . واذا تصرفنا مع الحاج مراد على انه اسير
فسيضيع كل التأثير الطيب للموقف . فأنا اظن بمقتضى هذا اننى
لا استطيع ان اصنع غير ما صنعت ، وان شعرت فى الوقت ذاته
اننى قد أتهم بأنى اقترفت خطأ كبيرا اذا جال فى رأس الحاج مراد
ان يفلت مرة أخرى . ومن العسير ان لم يكن من المستحيل - عند
القيام بواجب الخدمة ، وبخاصة اذا كان الموقف معقدا كهذا - اتباع
طريق مستقيم بعينه دون التعرض للأخطاء ومن دون تقبل
المسئولية . اما عندما يلوح ان طريقا ما هو الطريق المستقيم فيتعين
على اتباعه وليكن ما يكون .
وانى اسألك ايها الأمير العزيز ان ترفع هذا الى صاحب الجلالة
الامبراطور للنظر . واكون سعيدا لو راق عاهلنا الأعظم ان يصادق
على ما وضعت .
وقد كتبت الى القائدين زافودوفسكى وكوزلوفسكى بكل ما كتبت
فى أعلى هذا كى أرشد الأخير عندما يتصل اتصالا مباشرا بالحاج مراد
حذرته من ان يتصرف او ينتقل الى أى مكان دون رضاء كوزلوفسكى،
وكذلك اخبرته بأنه سيكون أولى بنا ثم اولى ان يسير راكبا مع
الحراس ، اذ دون ذلك قد يشيع شامل شائعة باننا نتحفظ به (١)
اسيرا ولكنى فى الوقت ذاته حملته على ان يعد بالا يذهب الى
فزدفزهنسك ذلك لان ولدى الذى اسلم نفسه له اول الأمر والذى
يعتبره شامل اخاه فى العهد ليس قائد ذلك الموقع ومن السهل ان
ينشأ سوء تفاهم غير مرضى وعلى اية حال فموقع فزدفزهنسك قريب
جدا من مستعمرة تعج بالسكان بينما جروزنى ملائمة من كل وجه
لاتصاله باصدقائه ، وهذا ما يرغب فيه .
وبالاضافة الى العشرين من القوزاق الذين اختيروا لملازمته بناء
على طلبه ارسل ايضا اليوزباشى لوريس ميليكوف ، وهو ضابط
فاضل ممتاز بالغ النجابة يتكلم اللسان التترى ويعرف الحاج مرادا
حق المعرفة ويحوز ثقته التامة فيما يظهر . وفى اثناء العشرة الأيام
التى قضاها الحاج مراد هنا عاش فى البيت ذاته مع قائم المقام

(١) تحفظ به : عنى بحفظه .

الأمير طرخانوف الذى له القيادة فى اقليم شوشين والذى جاء الى هنا فى أمر مرتبط بالعمل وانه لرجل ذو قيمة حقيقية أأتمنه كل الائتمان ، وقد اكتسب هو ايضا ثقة الحاج مراد ، وعن طريقه وحده – بما انه يجيد الكلام باللسان التترى ، تباحثنا فى اكثر الامور دقة وسرية . وقد استشرت طرخانوف فى شأن الحاج مراد . وهو يوافقنى كل الموافقة على انه ينبغى : اما التصرف بمثل ما صنعت واما القاء الحاج مراد فى السجن وحراسته فى اشد تحفظ (اذ لو عاملناه يوما معاملة سيئة فلن يكون من السهل ان نحتفظ به) والا وجب ترحيله عن البلاد كلية . غير ان الحلين الاخيرين لن ينجم عنهما فقط تعويض المزايا التى تأتت لنا من تنازع الحاج مراد وشامل بل لا معدى عن انهما سيكبحان اى ازدياد لتمرد الاهلين الحالى على سلطان شامل وثورتهم عليه فى المستقبل . ويخبرنى طرخانوف بانه شخصيا لا يشك فى صدق الحاج مراد ، وان الحاج مرادا مقتنع بان شاملا لن يغفر له بل سيأمر بعدمه (١) ، برغم اى وعد بالعفو . والشىء الوحيد الذى لاحظه طرخانوف لدى اتصاله بالحاج مراد والذى قد يثير شيئا من القلق هو تعقله بدينه : فهو لا ينكر ان شاملا قد يؤثر فى الحاج مراد من هذه الناحية ، ولكنه – كما ذكرت آنفا – لن يقنع الحاج مرادا ابدا بانه لن يأخذ حياته ، سواء أقريبا كان ذلك أم بعيدا ، وذلك ان عاد الاخير اليه .

هذا – ايها الامير العزيز – هو كل ما أود ان انبئك عن هذه القصة فيما يخص شئوننا هنا » .

(١) العدم « بفتحة فسكون » الموت . أما كلمة « الاعدام » فمعناها الفقر ، ومنها المعدم اى الفقير . وهذا من الخطأ الشائع حتى فى المحاكم ..

- ١٥ -

انفذ التقرير من تفليس فى الرابع والعشرين من ديسمبر من سنة ١٨٥١ وفى عشية السنة الجديدة سلم بريد (اقتضى سوقه اثنى عشر حصانا وضرب اثنى عشر سائقا حتى ادموا) الى الامير تشرنيشوف (وزير الحربية فى ذلك الوقت) . وفى اليوم الأول من يناير من سنة ١٨٥٢ أخذ تشرنيشوف تقرير فورونتسوف – بين أوراق أخرى – الى الامبراطور نيقولا (١) .

وكان تشرنيشوف لا يميل الى فورونتسوف بسبب الاحترام العام الذى كان الاخير يتمتع به ، وبسبب ثرائه العريض ، وكذلك لأن فورونتسوف كان أرستقراطيا حقيقيا بينما كان تشرنيشوف – مع ما هو فيه – حديث نعمة ، وبخاصة لأن الامبراطور كان عظيم الميل الى فورونتسوف بصفة خاصة . وعلى ذلك كان تشرنيشوف يحاول فى كل فرصة ان يسىء الى فورونتسوف .

وقد نجح فى اثارة سخط نيقولا على فورونتسوف – عندما قدم تقريرا عن شئون القوقاز – وذلك لأن الجبليين ابادوا فصيلة قوقازية صغيرة عن آخرها تقريبا . بسبب اهمال أولئك الذين كانوا فى قيادتها . وعزم الآن على أن يعرض الخطوات التى اتخذها فورونتسوف – بالاضافة الى الحاج مراد – تحت ضوء غير ملائم . وأراد ان يوحى الى الامبراطور أن فورونتسوف لا يفتأ يحمى الاهلين بل يعاملهم بالحلم لغير مصلحة الروس وأنه لم يراع الحكمة عندما أذن للحاج مراد فى البقاء بالقوقاز ، اذ هناك أسباب جمة تبعث على الارتياب فى انه لم يجىء الينا الا ليستطلع وسائل دفاعنا ، وعلى هذا فمن الخير أن نبعده الى آسيا الوسطى ، على الا نستخدمه الا بعد انقاذ أسرته من الجبليين ، وبعد أن يصبح من المستطاع ان نقنع انفسنا بولائه لنا .

ولم تحقق خطة تشرنيشوف الا لسبب واحد وهو أن نيقولا فى يوم رأس السنة كان منحرف المزاج بصفة خاصة ولم يكن ليقبل

(١) المقصود هنا هو نيقولا الاول « بن بطرس الاول » قيصر روسيا من ١٨٢٥ الى ١٨٥٥ الذى اخفق فى حرب القرم ضد تركيا وذلك بعد تدخل فرنسا وانجلترا .

من اى انسان – على سبيل التحفظ – اى اقتراح ايا كان ، ولا سيما من تشرنيشوف بالذات ، وانما كان يطيقه فحسب لانه كان يقدر الا غنى عنه مؤقتا ، ولكنه يراه وغدا . ذلك أن نيقولا كان يعلم بمساعيه فى أثناء محاكمة الديمسبريين (١) كى يضمن ادانة زخارى تشرنيشوف ، كما كان يعلم بمحاولة استخلاص ثروة زخارى لنفسه . وعلى هذا فالفضل فى بقاء الحاج مراد بالقوقاز انما هو لانحراف مزاج نيقولا ، ولأن ظروف الحاج مراد لم تتغير ، كما كان ممكنا ان تتغير لو أن تشرنيشوف رفع تقريره فى وقت آخر .

***

كانت الساعة التاسعة والنصف عندما ساق عبر مدخل قصر الشتاء – من خلال ضباب الصباح البارد (وقد اشار مقياس فهرنهيت للحرارة الى درجة ١٣ تحت الصفر) – الحوذى البدين الملحى لتشرنيشوف جالسا على كرسى مركبة الجليد الصغيرة التى تشبه المركبة التى طاف بها نيقولا ، وعلى راسه طاقية من القطيفة الزرقاء حادة الزوايا على شكل الوسادة ، وأومأ راسه ايماءة الود الى خدنه (٢) حوذى الأمير دلجوروكى الذى – بعد ان أوصل سيده الى القصر – ظل هو ذاته ينتظر خارجه منذ وقت طويل فى سترته الضخمة الأهداب المنجدة وهو جالس على الأعنة (٣) يفرك كفيه الخدرتين (٤) احداهما بالأخرى وكان تشرنيشوف يرتدى عطافا طويلا ذا قلنسوة واسعة وبنقة (٥) من السمور (٦) الفضى غزيرة الوبر وقبعة رسمية ذات ثلاثة اركان وريش ديك . وطرح خلفه غطاء العربة المصنوع من جلد الدب وحرر فى عناية قدميه المقفقفتين (٧) اللتين لم يلبس فوقهما خفين (وكان يباهى بانه لم يلبسهما قط) ، وصل بمهمازيه فى شجاعة مفتعلة ، وصعد السلم الذى يغطيه السجاد ، وعبر باب الايوان الذى فتحه له البواب على مصراعيه فى احترام ودخل الايوان وبعد خلع عطافة هرع

(١) فى ديسمبر من سنة ١٨٢٥ تآمر بعض رجال الجيش مستهدفين حصول روسيا على دستور، وذلك عند تبوء نيقولا الاول العرش

(٢) الخدن : الحبيب والصاحب للمذكر والمؤنث .

(٣) الاعنة : جمع عنان بكسر أوله وهو سير اللجام .

(٤) الخدر : بفتحة فكسرة ما يسمونه بالنمل .

(٥) البنقة : ما يعرف بالياقة .

(٦) السمور : بفتحة فشدة حيوان يشبه كلب البحر .

(٧) قلقف : ارتعد من البرد .

خادم قديم من خدام القصر الى تناوله ذهب الى مرآة وخلع فى عناية القبعة عن شعره المستعار المجعد . ونظر الى نفسه فى المرآة ، وسوى الشعر على صدغيه والخصلة على اعلى جبهته بحركة الفتها يداه العتيقتان وسوى صليبه وانشوطتى كتفى بذلته الرسمية (اسبليطتيه) ذاتى العلامات العريضة ، ثم صعد السلم الصاعد فى رفق والمفطى بالسجاد ، ورجلاه العتيقتان اللتان لا يعول عليهما كثيرا تصعدان فى وهن الدرج القليل الغور ، مارا على خدم القصر الذين يرتدون حلل التشريف والذين يقفون حانى الرءوس فى خضوع . ودخل تشرنيشوف غرفة الانتظار فلقيه فى احترام ياور من ياورى الأمبراطور (عين حديثا) فى بذلة رسمية جديدة متالقة ذات انشوطتين و (اسبليطتين) ، وكان وجهه ما يزال غضا متوردا وكان له شاربان صفيران أسودان ، والشعر الذى على صدغيه ممشط فى اتجاه عينيه على غرار الامبراطور .

فحياة الأمير واسيلى دلجوروكى نائب وزير الحربية وقد اتسم تعبير السأم على وجهه الغبى الذى كانت تزينه مثلهم عارضان وشارب وصدغان ممشطة على غرار نيقولا .

« الامبراطور ؟ » قال هذا بالفرنسية تشرنيشوف مخاطبا الياور متجها بنظره فى استفهام نحو الباب المؤدى الى المكتب .

فأجاب الياور بالفرنسية : « جلالته دخل توا » ، وقد تجلى انه يتلذذ من جرس صوته وأنه كان ينقل قدميه بخطى رقيقة مستقرة حتى انه لو وضع فوق راسه قدح من الماء ما أريق منه شىء ، ثم دنا من الباب واختفى ، كل جسمه يفيض بالتجلة للموضع الذى كان على وشك زيارته .

وفى تلك الأثناء فتح دلجوروكى ليستوثق من انها تضم الأوراق اللازمة ، واخذ تشرنيشوف – وهو عابس – يخطو ذهوبا وجيئة ليعيد الى قدميه الخدرتين الدورة الدموية ، كما أخذ يفكر فيما هو على وشك ابلاغه للامبراطور . وكان واقفا الى جوار باب المكتب عندما انفتح مرة اخرى . وخرج الياور – ولعله كان أكثر تألقا واحتراما من ذى قبل ، ودعا – وهو يومىء – الوزير ونائبه الى الدخول .

وقد اعيد بناء قصر الشتاء فى أعقاب حريق حدث قبل ذلك بوقت مديد ، الا أن نيقولا كان ما يزال يشغل الغرف التى فى الطبقة العليا . وكان المكتب الذى يتلقى فيه تقارير وزرائه وغيرهم من كبار

الموظفين غرفة جد سامقة (١) ذات أربع نوافذ عريضة . وكان معلقا على الواجهة الأمامية للغرفة صورة كبيرة للامبراطور اسكندر الاول ونصب مكتبان بين النوافذ ، وصفت مقاعد عديدة على طول الحوائط وكان يتوسط الغرفة منضدة ضخمة للكتابة والى امامها كرسى ذو مساند لنيقولا ، كما كانت هناك كراسى اخرى للذين يسمح لهم بالمثول بين يديه .

وجلس نيقولا الى المنضدة فى سترة سوداء ذات اشرطة معدنية على الكتفين ولكن من دون (اسبلايت) . وكان بدنه الضخم ـ بمعدته البالغة النمو المزمومة (٢) من الداخل ـ ملقى الى خلف ، وهو يتفرس فى القادمين الجدد بعينين ثابتين لا حياة فيهما . وكان وجهه الطويل الشاحب ـ بجبهته الضخمة المتراجعة بين خصلتى الشعر المشطتين الى امام الموصولتين فى مهارة بالشعر المستعار الذى يغطى رقعته الصلعاء ـ كان وجهه هذا باردا حجريا فى ذلك اليوم بصفة خاصة . وبدت عيناه الدائمتا الاعتـــام اكثر بلادة من المعتاد . اما شفتان المضغوطتان من تحت شاربه المعقوص (٣) الى أعلى والبنقة العالية التى تقيم رقبته وخداه السمينان اللذان حلقا منذ هنيهة واللذان ترك عليهما قليل من شعر العارضين متناسق على شكل المعى المحشو . فاما كل هذا فقد اكسب وجهه معنى التبرم بل الغضب . وكان سبب ضيق صدره كلال مرده الى انه فى الليلة السابقة حضر حفلة تنكرية ساخرة ، وبينما كان يطوف كعادته ـ فى بذلة حرس الفرسان وعلى خوذته طائر بين الجمهور الذى تزاحم حول هيئته الضخمة الواثقة من نفسها والتى كان يفسح لهـــا الطريق فى استخذاء (٤) ـ اذ ذاك قـابل من جديد المقنعـة التى اثارت فى الحفلة التنكرية الساخرة السابقة ببياض لونهـا وجمال جسدها ونعومة صوتها شـهوته الهرمة . وفى تلك الحفلة السابقة اختفت بعد ما وعدته باللقاء فى اليوم التالى .

على انها فى حفلة الأمس جاءته ، فلم يتركها تذهب هذه المرة بل اقتادها الى المقصورة المعدة خصيصا لهذا الفرض حيث يستطيع أن يخلو اليها . ولما بلغ نيقولا باب المقصورة فى سكون تلفت حوله

(١) سامقة : اى بالغة الارتفاع .
(٢) زم : ربط وشد .
(٣) عقص الشعر : ضفره او فتله وشده .
(٤) اى فى حياء .

كى يعثر على الخادم فلم يجده هنـــاك فتجهم ودفع الباب بنفسه فانفتح وجمل السيدة تدخل اولا .

قالت المقنعة بالفرنسية : « هنا بعضهم ! » وتوقفت فجاة .

وكانت المقصورة مشغولة فعلا ، اذ جلس على الأريـكة الصغيرة المغطاة بالقطيفة فى تلاصق ضابط من الاهلن (١) وشابة مليحة شقراء الشعر جعدته فى رداء تنكرى ، وكانت قد خلعت النقاب عن عينيها ـ فلما لمحت وجه نيقولا المغضب ينجذب الى اقصى ارتفاعه سارعت الى ارجاع النقاب مكانه . اما ضابط الأهلن فقد تصلب من الخوف وتطلع الى نيقولا بعينين ثابتتين دون ان ينهض من فوق الأريكة .

ولـما كان نيقولا قد الف الرعب الذى يبعثه فى الآخرين فان هذا الرعب كان دائما من دواعى سروره . وكان يحب احيـــانا من باب المطابقة ـ ان يذهل اولئك الغــارقين فى الرعب بأن يوجه اليهم كلمات رقيقة ، وهذا ما فعله فى تلك المناسبة .

فقال للضابط : « حسنا ايها الصديق ! انت اصغر منى ويصح أن تتنازل لى عن مكانك » .

فقفز الضــابط فوق قدميه واصفر ثم احمر وكاد أن ينثنى ، نصفين ثم تبع رفيقته فى صمت الى خارج المقصورة وترك نيقولا مع سيدته .

وتبين انها مليحة عذراء فى العشرين من عمرها وانها ابنة مربية اطفال سويدية . وقد قصت على نيقولا كيف أنها ـ عندما كانت صغيرة جدا ـ وقعت فى حبه من واقع صوره وكيف عبدته وكيف حزمت أمرها على ان تسترعى التفاته بأى ثمن ، ثم قالت انهـــا افلحت الآن وهى لا تبتغى شيئا اكثر من ذلك .

واخذت الفتاة الى المكان الذى اعتاد نيقولا أن يلقى فيه النساء هناك صرف معها اكثر من ساعة .

فلما عاد الى غرفته فى تلك الليلة ورقد على الفراش الصلب الضيق الذى كان يعتز به ، ولـما غطى نفسه بالمعطاف الذى اعتبر ان له شهرة قبعة نابليون (وتحدث عنه على انه كذلك) ، مضى وقت طويل قبل ان يستطيع النوم اذ فكر تارة فى معنى الخوف والزهو الذى ارتسم على الوجه الأبيض لتلك الفتاة وطـــورا فى منكبى حظيته تلدوفا المليئين الشديدين ثم قابل بين الاثنين . ولم يدخل رأسه مرة أن فجور رجل متزوج شىء مرذول ، ولو أن امرءا عذله من أجل ذلك لدهش ايما دهش . ومع أنه كان مقتنعا بانه تصرف

(١) الاهلن : الخيالة حاملو المزاريق فى الجيش الروسى والالمانى .

تصرفا صائبا فقد تخلف نوع من كدر ما بعد المذاق ، ولكى يخمد هذا الشعور استمسك باهداب فكرة انزلت فيه السكينة ، وهى فكرة عظمة شخصه .

ورغم انه نام متاخرا الى هذا الحد فقد نهض قبل الثامنة . وبعد أن باشر زينته على النحو المعتاد بان دلك بالثلج كل بدنه الكبير الذى حسنت تغذيته ، وصلى (مرددا تلك الصلوات التى اعتاد عليها منذ طفولته وهى : صلاة العذراء ، وقانون الايمـــان الرسولى ، والصلاة الربية دون أن يعلق معنى ما للكلمات التى فاه بها) . وخرج عبر الرواق الاصغر للقصر الى رصيف النهـــر فى عطافه وقبعته الحربيتين .

وعلى هذا الرصيف لقى طالبا بمدرسة الحقوق فى زيه الرسمى ، وكان فى مثل بدانته ، ولما لحظ نيقولا الزى الرسمى لتلك المدرسة التى لم يكن يحبها (بسبب حرية الفكر التى اتصفت بها) تجهم ، ولكن لطف كدره قوام الطالب وأسلوب الجد الذى به وقف منتصبا ليؤدى التحية وقد شد فى مباهاة مرفقه شدا .

قال . « اسمك ؟ » .

— « يولوزيتوف يا صاحب الجلالة الامبراطورية » .

— « ... فتى وسيم ! » .

وظل الطالب واقفا ويده مرفوعة الى قبعته .

وتوقف نيقولا .

— « اتود ان تدخل الجيش ؟ » .

— « ابدا ابدا يا صاحب الجلالة الامبراطورية » .

— « أحمق ! » وانثنى نيقولا واستطرد يمشى ، واخذ ينطق فى صوت عال أول ما مر براسه من كلم .

وردد مرات عديدة : « كيرفاين ... كيرفاين ... » (وكان هذا هو اسم فتاة الامس) . « فظيع .. فظيع .. » ولم يفكر فيما كان يقول ، وانما كان يخمد شعوره بالاستماع الى الكلم .

وقال — وهو يحس بعودة سخطه السابق : « أجل ، وماذا تصبح روسيا بدونى ، ماذا تصبح بدونى ، لا روسيا وحدها بل أوروبا ؟ » وبذكر ضعف صهره ملك بروسيا وغباءه وهز راسه .

وفيما كان عائدا الى الرواق الصغير رأى عربة هيلانة بافلوفنا (١)

(١) ارملة ميخائيل اخى نيقولا ، وهى امراة بارعة تربت تربية عالية وكانت تعنى بالعلوم والفنون والشئون العامة .

تدنو من مدخل سالتيكوف الى القصر مع خادم يلبس كسوة رسمية حمراء .

وكانت هيلانة — فى نظره — تمثل تلك الطبقة التافهة من الناس التى تجادل لا فى العلوم والشعر فحسب بل حتى فى اساليب حكم الرجال زاعمة أن فى وسعهم ان يحكموا انفسهم خيرا مما يحكمهم هو (نيقولا) ! وكان يعرف انه مهما اسرف فى سحق مثل هؤلاء الناس فهم يعاودون الظهور المرة بعد المرة ، وتذكر اخاه ميخائيل بافلوفتش الذى توفى قبل ذلك بوقت ليس بالطويل ، فتسلط عليه شـــعور الحزن والغيظ ، وفى عبوس معتم اخذ من جديد يهمس بأول ما مر بذهنه من كلم ، ولم يتوقف عن فعل ذلك الا عندما دخل القصر ثانية .

فلما وصل الى جناحه مهـــد شعر عارضيه وصدغيه والشعر المستعار الذى يغطى رقعته الصلعاء ، وعقص شاربه الى اعلى قبالة المرآة ثم ذهب رأسا الى المكتب الذى يتلقى فيه التقارير .

وبدأ باستقبال تشرنيشوف الذى فهم فى الحال من وجهه ، وبخاصة من عينيه ، أن نيقولا منحرف المزاج بصفة خاصة فى ذلك اليوم ، ولما كان يعلم بمغامرة الليلة الماضية ادرك السبب . وبعد ان حياه نيقولا فى فتور ودعاه الى الجلوس صـــوب اليه نظـــرة فاترة .

وكان اول امر عرضه تشرنيشوف اختــــلاس وقع من موظفى التعيينات كشف أمره توا . وتلا ذلك حركة الجنود على حـــدود بروسيا ، ثم جاءت قائمة الجوائز التى ستوزع فى السنة الجديدة على بعض اناس سقطت اسماؤهم من قائمـــة سابقة ، ثم تقرير فورونتسوف عن الحاج مراد ، وأخيرا مسألة مكدرة تخص طالبا من المجمع الطبى حاول ان يعتدى على حياة استاذ .

وسمع نيقولا التقرير عن الاختــــلاس صامتا مطبق الشفتين ، ويده الكبيرة البيضاء — وحول اصبعها الرابع خاتم واحد — تنقر على بعض أفرخ من الورق ، وعيناه مصوبتان فى ثبات على جبهة تشرنيشوف وعلى خصلة الشعر التى تعلوها .

وكان نيقولا مقتنعا بأن الجميع قد سرقوا ، وكان يعلم ان عليه ان يؤدب جميع موظفى التعيينات الآن وقرر أن يرسلهم ليشتغلوا عساكر فى الجيش ، ولكنه كان يعلم كذلك أن هذا لن يمنع أولئك الذين يخلفونهم من أن ينحوا نحوهم . فلقد كان من خصائص الموظفين

ان يسرقوا ، ولكن من واجبه ان يعاقبهم على فعل هذا . وبالرغم من انه كان متعبا من جراء هذا الواجب فقد داومه فى اخلاص .

قال : « يبدو ان فى روسيا رجلا شريفا واحدا » .

وفهم تشرنيشوف من فوره ان ذلك الرجل الشريف الاوحد هو نيقولا نفسه ، وابتسم ابتسامة الموافقة .

وقال : « يبدو ان الامر كذلك يا صاحب الجلالة الامبراطورية » .

فقال نيقولا : « دعها ، سابدى فيها قرارا » . واخذ نيقولا الوثيقة ووضعها على الجانب الايسر من المنضدة .

ثم تكلم تشرنيشوف عن الجوائز التى ستعطى وعن تحريك الجيش الى حدود بروسيا .

والقى نيقولا نظرة على القائمة وشطب بعض الاسماء ثم اصدر فى اختصار وحزم امرا بتحريك فرقتين الى حدود بروسيا . ولم يستطع ان يغفر للملك بروسيا منحه شـعبه دستورا بعد حوادث سنة ١٨٤٨ (١) وعلى هذا فبينما كان يعبر لصهره فى الخطابات عن اطيب العواطف الودية حسب ان من الضرورى الاحتفاظ بجيش بالقرب من الحدود لوقت الحاجة ، وقد تدعو الحاجة الى استخدام أولئك الجند لحماية عرش صهره اذا ثار شعب بروسيا (كان نيقولا يتوسم استعدادا للتمرد فى كل مكان) استخدم الجند لقمع الثورة فى المجر قبل ذلك ببضع سنوات ، وكان من مزاياها اعطاء المزيد من الوزن والتأثير لمثل النصيحة التى قدمها الى ملك بروسيا .

وفكر من جديد : « أجل ، وكيف تصبح حال روسيا الآن ان لم اكن انا هنا ؟ » .

ثم قال : « حسنا ، وماذا هنالك أيضا ؟ » .

فقال تشرنيشوف : « بريد من القـوقاز » وتحدث عما كتبه فورونتسوف عن استسلام الحاج مراد .

فقال نيقولا : « عال عال ، بداية حسنة ! » .

قال تشرنيشوف : « جلى ان الخطة التى دبرتها جلالتكم اخذت تؤتى اكلها » .

وكان هذا التامين على مواهب نيقولا فى الخطط الحربية يسره بصفة خاصة لانه ـ وان افتخر بتلك المواهب عليهم ـ كان يعلم

(١) كان فردرك غليوم الرابع ملك بروسيا قد الف فى سـنة ١٨٤٧ مجلسا يضم مندوبى المجالس المحلية . وفى سنة ١٨٤٨ قامت ثورة فمنح شعبه دستورا جديدا فى تلك السنة ثم لم يلبث فى سنة ١٨٥٠ ان شكل برلمانا من مجلسين .

فى قرارة قلبه ان لا وجود لها فى الحقيقة ، وهو يرغب الآن فى ان يسمع المزيد من الثناء المسهب على نفسه .

وسأل : « وما تعنى ؟ » .

ــ « اعنى انه لو نفذت خطط جلالتكم من قبل ولو تحركنا الى الامام فى تؤدة وثبات وجند لنا الغابات واتلفنا مواد الطعام لكان القوقاز قد خضع منذ أمد بعيد وانا اعزو استسلام الحاج مراد كلية الى اقتنـاعه آخر الأمر بانهم لن يستطيعوا الاستمرار فى المقاومة .

قال نيقولا : « صحيح » .

ومع أن خطة التقدم التدريجى فى ارض العدو عن طريق جندلة الغابات واتلاف مواد الطعام كانت لأرمولوف ووليا مينوف وكانت مناقضة تماما لخطة نيقولا الخاصة التى تقضى باغتصاب مقر شامل وتدمير وكر اللصوص ــ وهى الخطة التى انفذت بمقتضاها تجريدة دار جونى فى سنة ١٨٤٥ التى منيت بخسائر كثيرة فى الارواح ــ مع هذا نسب نيقولا لنفسه كذلك خطـة التقـدم البطىء وجندلة الغابات وتدمير البلاد بشكل منظم . ويبدو ان هذا الاعتقاد ــ وهو ان خطة التقدم البطىء (عن طريق جندلة الغابات بشكل منظم وتدمير مواد الطعام) هى خطته ــ لابد ان يكون قد استتبع اخفاء الحقيقة ، والحقيقة هى انه قد اصر على ارسال تجريدات مناقضة لذلك كل المناقضة فى سنة ١٨٤٥ . ولكنه لم يخفها بل كان يفاخر بخطـة سنة ١٨٤٥ وبخطة التقدم البطىء وان تناقضت الاثنتان . وقد بلغ به الملق المطرد الوقح الذى يزجيه له كل من حوله برغم الحقائق ــ الى حال لا يستطيع معها ذلك ان يرى تنـاقضه أو ان يقيس اعماله واقواله بالواقع والمنطق أو حتى بالادراك البسيط ، ولكنه كان مقتنعا كل الاقتناع بأن كل أوامره ــ مهما كانت غير معقولة وغير عادلة ومتبادلة التناقض ــ متعادلة متبادلة الاتساق ، لا لسبب الا انه هو الذى اصدرها . وكان قراره فى المسألة التى عرضت عليه بعد ذلك ــ وهى مسألة طالب المجمع الطبى ــ من هذا النوع غير المعقول .

وكانت المسألة كما يلى : امتحن ثالث مرة شاب رسب فى امتحانه قبل ذلك مرتين . فلما لم ينجحه الممتحن من جديد اعتبر الشاب ــ الذى اختلت أعصـابه ــ أن هـذا ظلم . واختطف مدية من فوق المنضدة ، فى نوبة اشتداد الاضطراب ، وانقض على الأستاذ واصابه

عدة اصابات تافهة .

فسأل نيقولا : وما « اسمه ؟ » .

— « بزهزوخسكى » .

— « بولندى ؟ » .

فأجاب تشرنيشوف : من « أصل بولنـــدى ، وكاثوليـكى ، رومانى » .

تجهم نيقولا — لقد أمعن الاساءة الى البولنديين . ولـكى يسوغ هــذه الاساءات كان ينبغى له أن يوقن أن كل البولنـــديين سفلة ، فاعتبرهم كذلك ، وكرههم بنسبة الشر الذى انزله بهم .

وقال وهو يغمض عينيه ويحنى راسه : « انتظر قليلا » .

ولما كان تشرنيشوف قد سمع نيقولا اكثر من مرة يقول هذا ، علم أن الامبراطور عندما يتحتم عليه أن يتخذ قرارا ما لم يكن يلزمه الا أن يركز انتباهه بضع لحظات ، فتهزه الروح ويتمثل له احسن حل ممكن كأن صوتا داخليا قد أملى عليه ما يفعل ، وكان يفكر فى تلك الآونة كيف يرضى كل الارضاء شعور العداء نحو البولنديين الذى اثارته هذه الحادثة فى نفسه واوحى اليه الهاتف الداخلى القرار الواجب . فأخذ التقرير وكتب على هامشه بخط كبير فيه ثلاث غلطات (١) املائية : « ويستحق الموط ولـكن ليست عنـدنا والحمد لله عقوبة الايعدام ، وليس لى ان ادخلها . وقعوا عليه اثنتى عشرة مرة عقوبة التهزيق العسكرى بين صفين من الف جندى (٢) — « نيقولا » .

ووقع مع اضافة تنميقه الضخم ضخامة غير طبيعية .

ولقد كان نيقولا يعلم أن اثنى عشر الف ضربة لم تكن فقط موتا محققا مع التعذيب بل كانت قسوة فوق الطاقة ، اذ أن خمسة آلاف ضربة تكفى لقتل اقوى رجل . ولكن كان من دواعى سروره أن يكون قاسيا بلا رحمة كما كان من دواعى سروره أن يظن انا الغينا عقوبة الموت فى روسيا .

وبعد ما كتب قراره فى شأن الطــالب دفعــه عبر المنضدة الى تشرنيشوف .

وقال : « هاك ، اقرأه » .

(١) حرص المترجم على أن تكون الاخطاء فى الترجمة العربية فيما يماثلها من أصلها الانجليزى .

(٢) قصاص عسكرى يقضى بأن يمر المذنب بين صفين من العساكر فيضربه كل منهم بدوره ، وهذا التقليد غير مستعمل فى مصر .

فقرأه تشرنيشوف وحنى راســـه ليعبر عن دهشته واحترامه لحكمة القرار .

واضاف نيقولا : « نعم ، وليحضر جميع الطلبة الى ارض التدريب فى اثناء العقوبة » .

وجال فى خاطره . « سيفيدهم هــذا ! سأمحو الروح الثورية وسأجتثها من جذورها ! » .

فأجاب تشرنيشوف : « سينفذ » . وبعد توقف قصير عـــدل الخصلة التى تعلو جبهته وعاد الى التقرير القوقازى .

— « ماذا تأمرنى أن اكتب جوابا على رســالة فورونتسوف العاجلة ؟ » .

فأجاب نيقولا : « ان يثبت على خطتى من تدمير المساكن وموارد الطعام فى ششنيا وان يضايقهم بالغارات » .

وسأل تشرنيشوف : « وما أوامر جلالتكم بالاضافة الى الحاج مراد ؟ » .

— « يقول فورونتسوف انه يود ان ينتفع به فى القوقاز » .

قال تشرنيشوف متفاديا نظــرة نيقولا : « الا ينجم عن ذلك خطر ؟ اخشى ان تكون ثقة الامير فورونتسوف اكثر مما ينبغى له » .

واستفهم نيقولا فى نشاط ليكشف غرض تشرنيشوف من تقديم قرار فورونتسوف تحت ضوء غير ملائم « وانت ... ما تظن ؟ » .

— « كان لى أن اظن ان الآمن ابعاده الى روسيا الوسطى » .

قال نيقولا متهكما : « كان لك أن تظن ، ولكنى انا لا اظن ، واوافق فورونتسوف . اكتب اليه على هذا الأساس » .

قال تشرنيشوف : « سينفذ » — ونهض وحنى نفسه خارجا .

وكذلك حنى دلجوروكى نفسه خارجا ، بعــد أن فاه فى اثناء الاجتماع بكلمات قليلة فقط (جوابا على سؤال من نيقولا) فى شأن حركة الجيش .

وبعد تشرنيشوف استقبل نيقولا (بيبيكوف) الحــاكم العام للأقاليم الغربية . وبعد ان أبدى موافقته على التدابير التى قـام بها بيبيكوف ضد الفلاحين المتمردين الذين رفضوا اعتناق المـذهب الكاثوليكى ، اصــدر أمره بأن يدفع أولئك الذين لم يذعنوا ، الى المحاكمة أمام مجلس عسكرى ويعدل هذا عقوبة التهزيق العسكرى بين صفين من الجند . وأمر أيضا بارسال رئيس تحرير احدى الجرائد الى الخدمة العسكرية لأنه نشر بيانا عن بضعة آلاف من

فلاحي الحكومة الى المزارع الامبراطوريه .

قال نيقولا : « انا اصنع هذا لانى احسبه ضروريا ، ولن اسمح بمناقشة » .

وادرك بيبيكوف فداحة الامر الخاص بالفلاحين من اليونياتيين (١) وظلم نقل فلاحي الدولة (وهم الفلاحون الوحيدون الاحرار في تلك الايام) الى التاج — وهذا يعني جعلهم عبيدا للأسرة الامبراطورية — الا انه كان من المستحيل ابداء الاستنكار . اذ ان عدم الموافقة على قرار لنيقولا معناه الاكيد فقد ذلك المركز اللامع الذي انفق بيبيكوف اربعين عاما حتى ناله — والذي يستمتع به الآن . وعلى ذلك احنى في خضوع رأسه الادكن (الذي مسه الآن فعلا أثر من اللون الرمادي) ليدل على اذعانه واستعداده لتنفيذ المشيئة العليا القاسية المجردة من الانسانية والشرف .

وبعد ان صرف نيقولا (بيبيكوف) تمطى في شعور من احس القيام بواجبه ، ولمح ساعة الحائط ثم ذهب ليتأهب للخروج .

وبعد ان لبس بدلة رسمية ذات (اسبليطتين) واوسمة ووشاح قصد الى بهو الاستقبال حيث ينتظر قدومه في قلق اكثر من الف شخص : رجال في بدلاتهم الرسمية ونساء في اثواب انيقة خفيضة الصدر ، وقد وقفوا جميعا في الأماكن التي خصصت لهم .

وخرج اليهم بنظرة فاترة في عينيه ، متمدد الصدر ، ناتىء المعدة من فوق احزمتها ومن تحتها . ولما شعر بانظار الجميع تتركز عليه في رعدة ومذلة زاد في اصطناع هيئة الظفر . وكلما التقت عيناه بأولئك الذين عرفهم — وتذكر شخصياتهم — توقف ووجه اليهم كلمات قليلة ، باللسان الروسي تارة وباللسان الفرنسي طورا ورشقهم بعينه الباردة الجامدة مصغيا الى ما يقولون .

وبعد أن تلقى كل تهاني السنة الجديدة انتقل الى الكنيسة حيث رحب به الله وحمده — عن طريق عبده القساوسة — كما يفعل اهل هذه الدنيا (٢) . وقد تقبلها نيقولا كما ينبغي له ، بالغا ما بلغ كلاله من هذا الترحيب وذاك الحمد . وكان كل هذا كما ينبغي لأن خير العالم اجمع وسعادته يعتمدان على شخصه . ورغم انه كان تعبا لم يرض مع ذلك أن يضن بمساعدته على العالم .

(١) يعترف اليونياتيون بـ « بابا » روما وان كانوا في بعض الشئون الاخرى على وفاق مع الكنيسة الاورثوذكسية الروسية اليونانية .

(٢) بلغ تهكم المؤلف على القيصر أقصاه في العبارتين السابقة واللاحقة .

وعندما بدأ في آخر الصلاة شماس الكنيسة — ذو الحلة الفاخرة والشعر الطويل الذي جعـــد وعني بتمشيطه — ترتيله (سنوات عديدة) التي حفظها عن ظهر قلب جوقة المرتلين السنية ، عند ذلك تلفت نيقولا حوله ولحظ نليدوفا بمنكبيها الرقيقين واقفة الى جوار النافذة ، وبعد أن قارنها بفتاة الأمس حكم لصالحها .

وبعد القداس الـ (ماس) (١) ذهب الى الامبراطورة وصرف دقائق معدودات في حضن الاسرة لاهيا مع الأطفال ومع زوجه . ثم عبر الأرميتاج (٢) وزار فلكونسكي وزير البلاط ، وامره بأن يدفع من اعتماد معين معاشا سنويا لام فتاة الأمس . ومن هناك تنزه في مركبته كالمعتاد . وفي تلك الليلة قدم العشاء في بهو بومبياى (٣). وقد دعي — الى جانب انجال نيقولا وميخـــائيل — البارون ليفن والكونت رزهيفسكي ودولجوركي وسفير بروسيا وياور ملكها .

وفي انتظار ظهور الامبراطور والامبراطورة جرى حـديث مسل بين البارون ليفن والسفير البروسي في شأن الاخبار المزعجة الواردة من بولندا (وكان باللغة الفرنسية) .

وقال ليفن : « بولندا والقوقاز هما قرحتا روسيا . يلزمنا قرابة مائة الف رجل في كل من هذين القطرين » .

فاعرب السفير عن دهشة مصطنعة من ان تكون الحال كذلك .

وبدأ السفير : « تقول ان بولندا ... » .

— « اجل أجل ، لقد ضرب مترنيخ (٤) ضربة معلم عندما خلف لنا متاعبها » .

وعند هذا دخلت الامبراطورة برأسها المرتعش وابتسامتها المثبتة يتبعها نيقولا .

وفي اثناء العشاء تكلم نيقولا عن استسلام الحاج مراد ، وقال ان الحرب في القوقاز الآن يجب ان تنتهي قريبا نتيجة للاجراءات التي يقوم بها ناحد من مجال الجبليين ، وذلك بجندلة غاباتهم وبخطته

(١) احتفال ديني لكنيسة روما بذكرى اخر عشاء ليسوع المسيح .

(٢) الارميتاج متحف شهير ومعرض صور في لينينجراد ببطرسبورج في جوار قصر الشـتاء ..

(٣) نسبة الى مدينة قديمة في سفح بركان فيزوف بايطاليا وكانت مرتعا لاغنياء الرومان ، وقد ردمتها الحمم وبدىء في تعرية الحمم ابتداء من سنة ١٧٤٨ لكان ذلك من حظ علماء الاثار ..

(٤) مترنيخ هو السياسي النمسوي الفذ الذي زوج نابليون بونابارت من مارى لويز والذي اصبح بعد سقوط الامبراطورية بمقتضى الحلف المقدس فيصل اوروبا « ١٧٧٣ — ١٨٥٩ » ..

فى اقامة سلسلة من الحصون الصغيرة .

وبعد أن تبادل السفير نظرة سريعة مع الياوران ـ الذى حدثه هو هذا الصباح فقط عن ناحية الضعف التعسة فى نيقولا لاعتباره نفسه عظيما فى وضع الخطط الحربية ـ بعد هذا اثنى ثناء حارا على هذه الخطة التى أبرزت مرة أخرى قدرة نيقولا العظيمة فى وضع الخطط الحربية .

وبعد العشاء ركب نيقولا عربته الى الفنزج (١) حيث تدور مئات من النساء فى ملابس محكمة الضيق أو بالغة الشح . وقد استرعت احداهن نظره بصفة خاصة فارسل الى الالمانى رئيس جوقة الفنزج واصدر أمرا بأن يقدم لها خاتم من الماس (٢) .

وعندما جاء تشرنيشوف بتقريره فى اليوم التالى ايد نيقولا من جديد أوامر الى فورونتسوف : بأن أهل ششنيا ـ وقد استسلم الحـاج مراد الآن ـ يجب الامعان فى ازعاجهم اكثر من ذى قبل كما يجب احكام الحصار المضروب حولهم .

فكتب تشرنيشوف بهذا الى فورونتسوف ، وعدا الى تفليس بريد آخر سيق فيه بقسوة المزيد من الخيل ، ووسم فيه المزيد من وجوه الحوذيين .

(١) الفنزج : الرقص المعروف بـ « الباليه » .
(٢) الصحيح الالماس وليس « الماس » .

- ١٦ -

وامتثالا لهذا الأمر من نيقولا شنت فى الحال غارة على ششنيا فى ذلك الشهر نفسه ـ يناير سنة ١٨٥٢ .

وتكونت الفصيلة التى امرت بشن الغارة من اربع كتائب من المشاة وسريتين من القوزاق وثمانية مدافع . وسار (الطابور) على طول الطريق ، وعلى جانبيه فى خط متصل ـ منحدرا تارة ومصعدا طورا ـ مشى شباب الجنود فى احذيتهم العالية وستراتهم المصنوعة من فراء الغنم وطواقيهم العالية ، والبندقيات على عواتقهم والفشك فى أحزمتهم .

وكان السكون يلاحظ قدر المستطاع كالمعتاد كلمـا عبروا منطقة معـادية .

الا انه قد يتفق احيانا ان تجلجل المدافع مرتجة عبر حفرة ، أو ان يزنخر حصان مدفعية ، أو يصهل غير فاهم أن الجميع مأمورون بالسكون ، او ان يصرخ قائد غاضب ـ فى صوت اجش خفيض بـ فى مرءوسيه بأن الخط ينتشر الى الخارج اكثر مما ينبغى له ، أو يسير مبالغا فى القرب من (الطابور) او فى البعد عنه ، ولم يقطع هذا السكون الا مرة عندما قفز الى الخارج ـ من رقعة من العليق (١) بين الخط والطابور ـ غزال ذو صدر ابيض وظهر رمادى وفى اثره وعل باللون نفسه ذو قرنين صغيرين منحنيين الى وراء . وقد اقترب المخلوقان الهيوبان الجميلان من (الطابور) ـ تزدوج سوقهما (٢) الأمامية الى عل لدى كل وثبة يثبانها ـ حتى ان بعض الجنود اندفعوا خلفهما يضحكون ويصرخون معتزمين طعنهما بالرماح الا ان الغزالين انثنيا الى خلف وملصا من خلال خط شباب الجند ، وتعقبهما خيالة قليلون وكلاب السرية ففرا الى الجبال كالطير .

(١) العليق بضمة فشدة مفتوحة : نبت شائك يتعلق بالشجرة ، وثمرة كالتوت
(٢) جمع ساق ..

وكان الجو شتاء . ولكن عند اقتراب الظهيرة وبعد ما قطع الطابور ــ الذى بدأ فى الصباح المبكر ــ ثلاثة اميال ، بزغت الشمس وبلغت من العلو والقوة درجة جعلت الرجال شديدى الحرارة ، واشرقت اشعتها الى حد اضحى من المؤلم معه النظر الى صلب الرماح اللامع أو الى الانعكاسات التى تضىء نحاس المدافع الاصفر كالشموس الصغيرة .

وكان من خلفهم الجدول الرائق السريع الذى عبرته الفصيلة توا ، ومن امامهم حقول محروثة ومراع فى أودية قليلة الغور . وعلى مبعدة منها من أمام ، الآكام المعتمة الغامضة تكسوها الغابات وترتفع من ورائها صخور شامخة . وعلى مبعدة من تلك ايضا فى الأفق السامق الهامات الثلجية الدائمة التغير التى تداعب الضياء كالماس .

وعلى رأس السرية الخامسة سار على طول الطريق بتلر ــ وهو ضابط فارع وسيم كان قد بادل زميلا فى الحرس ــ وقد لبس سترة سوداء وطاقية عالية وحمل سيفه على عاتقه . وكان يملأه معنى الشعور ببهجة العيش ، وخطر الموت ، والشوق الى الحرب ، والاحساس بأنه جزء من كل هائل تديره ارادة واحدة . وكانت هذه هى المرة الثانية التى خرج فيها الى الحرب ، وقد جال بخاطره انهم فى لحظة قد يطلقون عليه النار ، وانه لن يمتنع عن الانحناء ، وحسب عندما تتطاير القنابر (١) من فوق راسه او لن يحفل بصرير الرصاص وحسب ، بل سيحمل راسه اكثر انتصابا من ذى قبل وسيتلفت حوله الى رفاقه والى العسكر بعينين باسمتين ويأخذ فى التحدث فى صوت بالغ الهدوء فى شئون مغايرة كل المغايرة لما هم فيه .

وانثنت الفصيلة عن الطريق الطيبة الى اخرى قل استخدامها كانت تعبر حقل اذرة بقيت فيه جذومها (٢) بعد الحصاد واخذت تتسلل الى قرب الغابة ، واذا بقنبرة ــ ذات صفير منذر ــ تتطاير فوق الرءوس بين عربات النقل ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا مصدرها ، قنبرة دمرت الارض فى الحقل الى جانب الطريق .

(١) القنابر : تصحيح لكلمة القنابل .
(٢) الجذوم : الاعقاب ■

فقال بتلر فى ابتسامة مشرقة الى رفيق كان يسير فى جواره :

ــ « انها تبدأ » .

وهكذا كان ، فقد ظهر بعد القنبرة حشد كثيف من فرسان الششنيين ببيارقهم من تحت حجاب الغابة وكان ميسورا أن يرى فى وسط الحشد بيرق عريض اخضر . فقال صول مسن بعيد مدى النظر لبتلر القصير النظر : ان شاملا نفسه لابد أن يكون هناك .

وانحدر الفرسان من الأكمة وظهروا الى يمين فى الجزء الأعلى من الوادى والأقرب الى الفصيلة واخذوا يهبطون . وجاء الى سرية بتلر ممتطيا رهوانه قائد قصير القامة فى سترة سوداء سميكة وطاقية عالية ، وامره بأن يتجه الى يسار لينازل الفرسان الهابطين . وفى سرعة قاد بتلر سريته الى الاتجاه المحدد له ، غير ان قبل ان يبلغ الوادى سمع من خلفه طلقتى مدفع . فتلفت حوله : لقد ارتفعت من فوق مدفعين سحابتا دخان اغبر واخذتا تنتشران على الوادى .

وانسحب فرسان الجبليين الذين لم يتوقعوا بالطبع ان يلقوا المدفعية واخذت سرية بتلر تطلق النار عليهم ، وافعم الوهدة دخان البارود . وانما فى منطقة اكثر علوا فوق الوهدة فقط امكنت رؤية الجبليين ينسحبون مسرعين وان ظلوا يطلقون النار خلفهم على القوزاق الذين كانوا فى اثرهم .

وتأثرت السرية الجبليين الى مدى أبعد ، وعلى سفح وهدة ثانية ظهرت محلة للعيان .

وتعقب بتلر القوزاق مع سريته ودخلوا المحلة جريا فألفوها مهجورة . وأمر العسكر بأن يحرقوا القمح والدريس والدارة ، ولم تلبث المحلة كلها ان امتلأت دخانا لاذعا تدافع من خلاله الجنود هنا وهناك وجذبوا الى خارج الدارة كل ما وسعهم ان يجدوا ، وفوق كل شىء أمسكوا وصادوا الطيور التى لم يتيسر للجبليين ان يحملوها معهم .

وجلس الضباط على مدى قصير بعد الدخان وتغدوا وشربوا . واحضر لهم الصول بعض أقراص من الشهد فوق لوحة من الخشب ، ولم يكن هناك ما يؤذن بوجود ششنيين ، فأعطى فى ساعة مبكرة من العصر الأمر بالانسحاب .

وكونت السرايا (طابورا) خلف المحلة ، واتفق أن كان بتلر فى ساقته . ولم يكادوا يبدءون حتى ظهر الششنيون يطاردون الفصيلة ويطلقون عليها النار . ولكنهم امسكوا عن هذه المطاردة بمجرد أن خرجوا الى العراء .

ولم يجرح احد قط من سرية بتلر فعاد فى حالة نفسية موفور السعادة والقوة . وبعد ان خاضت الفصيلة الجدول ذاته الذى عبرته فى الصباح انتشرت فى حقول الأذرة وبين المروج ، وتقدم منشدو كل سرية (١) وملأت الأغانى أطباق الجو .

وانشد منشدو بتلر : « شباب الجنود ، شباب الجنود ، جد مغايرين ، جد مغايرين » وخطا فرسه طربا مع ايقاع الموسيقى . وجرى الى امام ترزوبكا — وهو كلب السرية الرمادى الأشعث ذيله — متجه الى اعلى يحمل كالقائد معنى المسئولية . واستشعر بتلر خفة وهدوءا وبهجة . ولاحت له الحرب على انها تعريض نفسه للمخاطر ومواجهته لموت محتمل ليس غير، فينال بمقتضى هذا المثوبة والاحترام من رفاقه هنا كما ينالهما من اصدقائه فى روسيا . ومما يحقق قوله مع الدهشة ان خياله لم يصور له قط مطالع (٢) الحرب الاخرى كموت الجنود والضباط الجبليين وجراحهم . ولكى يستبقى تصوره الشعرى كان يجتنب حتى دون ان يشعر النظر الى القتلى والجرحى مر بجثة ملقاة على ظهرها ولم يتوقف لينظر ، وانما رأى بعين واحدة فقط الوضع الغريب لليد التى كالشمع والبقعة الحمراء القاتمة على الراس . وبدا له أن الجبليين ان هم الا بواسل عليه ان يذودهم عن نفسه .

وقال البكباشى الذى معه فى الفترة التى بين الأغنيتين : « انت ترى ياسيدى العزيز ان حالك هنا ليست كحالك فى بطرسبرج (العينان صوب اليمين ! ، العينان صوب اليسار !) هنا قمنا بعملنا ، والآن نذهب الى المنزل ، وستضع ما شا امامنا فطيرة محشوة وشيئا من حساء السكرمب اللذيذ. هذه هى الحياة . الا تظن ذلك ؟ والآن ابدءوا هيا . (فيما كان الفجر ينبثق !) » ، وطلب أغنيته المفضلة .

ولم تكن هناك ريح . وكان الهواء عليلا صحوا وكان شفافا بحيث

(١) كان لكل فرقة عسكرية جوقة من المنشدين .
(٢) مطالع الحرب : وجوهها .

بدت آكام الثلج التى تبعد نحوا من مائة ميل كأنها جد دانية ، وفى الفترات التى تفصل بين الأغنيات كان وقع الخطى النظامية . وجلجلة المدافع تسمع على انها الصورة الخلفية التى تبدأ وتنتهى عندها كل أغنية . اما الأغنية التى تغنى فى سرية بتلر فقد وضعها جندى شاب اكراما للفصيلة وذهب ليرقص . وكانت الجوقة تردد (شباب الجنود — شباب الجنود ، جد مغايرين ، جد مغايرين) ! .

وركب بتلر الى جانب الضابط الذى يعلوه فى الرتبة مباشرة وهو بتروف الذى يساكنه ، شاعرا بانه لا يستطيع ان يوفى كل ما ينبغى علية من شكر لكونه بادل مع الحرس وجاء الى القوقاز .

وكان حافزه الرئيسى للمبادلة انه خسر فى لعب الورق كل ما كان لديه وخشى ان هو بقى هناك ان يفقد قدرته على المقاومة وان لم يكن لديه ما يخسره بعد . والآن انتهى كل هذا وتبدلت حياته واصبح شخصا ظريفا شهما ! ونسى انه أفلس ونسى ديونه التى لم تدفع ...

القوقاز — الحرب — الجنود — الضباط ، اولئك الرفاق النشاوى الشهام الطيبو الخلق — والبكباشى بتروف نفسه — كل اولئك بدوا مبتهجين الى درجة انه لم يكد يصدق انه ليس فى بطرسبرج : فى غرفة مفعمة بدخان التبغ ، يثنى الى اسفل اركان ورق اللعب (١) ، ويقامر ويحقد على من معه (البنك) ويشعر بالم كميد فى راسه الا انه هنا حقا فى تلك المنطقة المجيدة بين أولئك القوقازيين الشجعان .

وقد عاشا معا ، على غرار زوج وزوجه ، البكباشى وابنة مراسلة احد الجراحين — وكان يطلق عليها قبلا اسم (ماشا) ولكن يطلق عليها الآن اسم أدعى للاحترام وهو مارية ديمترييفنة ، وكانت امراة مليحة شقراء جد نمشة لا ولد لها وفى الثلاثين من عمرها . وهى الآن — ايا كان ماضيها — رفيقة البكباشى المخلصة التى ترعاه كأنها ممرضة ، وهذا امر ضرورى جدا اذ طالما أسكر نفسه الى حد الغيبوبة .

وعندما بلغوا الحصن حدث كل شيء كما حسب البكباشى . قدمت مارية ديمترييفنة اليه والى بتلر واثنين آخرين من ضباط الفصيلة ،

(١) طريقة لمضاعفة الرهان فى لعبة اصابة الهدف شوتس .

كانا قد دعيا ، عشاء مغذيا للديدا ، وأكل البكباشي وشرب حتى عجز عن الكلام ثم ذهبَ الى غرفته لينام .

ولما كان بتلر قد شرب من خمرة الشعير اكثر من طاقته . فقد ذهب الى غرفة نومه متعبــا وان كان راضــيا . ولم يــكد يخلع ملابسه حتى راح فى نوم عميق متصل غير حالم ويده تحت راسه الجعد الوسيم .

- ١٧ -

وكانت المحلة التى دمرت هى بعينها المحلة التى أمضى فيها الحاج مراد الليلة التى ذهب بعدها الى الروس . وقد ترك سعد واسرته المحلة عندما اقتربت الفصيلة الروسية . ولدى عودته وجد دارته يبابا ، السقف متقوض فى داخلها ، والباب والعمــد التى ترفع السقيفة محرقة ، وداخل الدارة بالغ القذارة . اما ابنه ــ الصبى الوسيم ذو العينين البراقتين الذى كان قد رنا الى الحاج مراد بسرور فارط ــ فقد حمل الى المسجد فوق حصان ميتا مسجى (١) ببردة ... لقد طعن بسنجة فى ظهره ــ وقفت المراة الوقور التى خدمت الحاج مرادا عندما كان بالبيت ، وقفت الآن على جثمان ولدها وقدقد قميصها من قبل (٢) وانكشف ثدياها العتيقان الذاويان ، وتهدل شعرها ، وانشبت أظافرها فى داخل وجهها حتى ادمى . واعولت اعوالا متصلا . وحمل سعد معولا وجاروفا وذهب مع أقربائه ليحتفر لولده قبرا . وجلس الجد العجوز فى جوار جدار الدارة المخربة يبرى عصا وينظر امامه كالأبله . انه عائد لتوه من المنحل .

لقــد أحرقت كومتــا الدريس الموجودتان هنــاك ، وكسرت وسفعت (٣) أشجار المشمش والكريز التى غرسها وتعهدها ، واسوأ من هذا كله : أحرقت كل خلايا النحل والنحل . واختلط عويل النساء وصغار الأطفال الذين خرجوا مع أمهاتهم بخوار البهائم الجائعة التى لم يوجد لها ثمة طعام اما كبار الأطفــال فبدلا عن ان يلعبوا ، لاحقوا ذويهم ــ الذين يكبرونهم ــ بعيون فزعة . ودنس الينبوع ، عمداً من دون شك ، للحيلولة دون استعمال الماء . ودنس المسجد بالصورة نفسها ، وكان الملا ومساعدوه فى سبيل تطهيره . ولم يتكلم أحد عن كراهية الروس ، اذ كان الاحساس الذى يكابده الششنيون من صغيرهم الى كبيرهم أقوى من الكراهية ، ليست كراهية اذ انهم لم ينظروا الى تلك الكلاب الروسية على أنها من بنى آدم . ولكنه كان

(١) سجى الميت : مد عليه غطاء .
(٢) قبل بضمتين من أمام .
(٣) سفعت السموم وجهه : لفحته وغيرت لون بشرته .

نفورا واشمئزازا وحيرة من القساوة العديمة الحس لتلك المخلوقات الى حد ان الرغبة فى افنائهم ـ كالرغبة فى افناء الفيران او العناكب السامة او الذئاب ـ اضحت غريزة طبيعية كغريزة حفظ النوع .

واصبح لزاما على سكان المحلة ان يختاروا . فاما ان يظلوا هناك ويجددوا بجهود مروعة كل ما كانوا انتجوه بمثل هذا الكد وما دمر بمثل ذلك الاستهتار وذلك الجنون متعرضين فى كل لحظة لاحتمال تكرار ما حدث ، واما ان يستسلموا للروس ضد دينهم وبرغم النفور والاحتقار اللذين يكنانه لهم .

وابتهل العجائز من الرجال وقرروا ان يرسلوا مبعوثين الى شامل يسألونه العون . ثم ما لبثوا ان بداوا فى العمل لتجديد ما اصابه التلف .

- ١٨ -

وفى الصباح بعد الغارة فى وقت ليس بالمبكر جدا زايل بتلر الدار من السقيفة الخلفية قاصدا ان يجول جولة وأن يستنشق الهواء العليل قبل الفطور الذى يتناوله فى العادة مع بتروف . وكانت الشمس قد ارتفعت فوق الآكام ، وكان من المؤلم النظر الى الجدر البيضاء المشرقة الاضاءة للدار التى الى الجانب الأيمن من الشارع . ولكن كان مما يبهج النفس وينزل السكينة اذ ذاك وفى كل وقت أن ينظر المرء يسرة الى الآكام الداكنة المرتدة المتعالية التى تكسوها الغابات والى صف الهامات الثلجية الأغبش الذى يبدو كأنه السحب ، ونظر بتلر الى تلك الجبال وهو يستنشق انفاسا عميقة ويتهلل : لانه باق على قيد الحياة ولأنه هو دون غيره الباقى على قيد الحياة ، ولانه يعيش فى هذا المكان الجميل .

وقد سره بوجه عام أنه تصرف على هذا النحو من التصرف الحسن فى مسألة الأمس فى أثناء التقدم ، وبخاصة فى أثناء التقهقر عندما كانت الأمور على أشدها . وكذلك سره كيف عاملتهم ماشا (أو مارية ديمتريفنة) عشيقة بتروف ـ لدى العشاء عندما عادوا بعد الغارة وكيف كانت هاشة متبسطة مع الجميع ، وكيف كانت رفيقة به بوجه خاص فيما زعم .

اما مارية ديمتريفنة ـ بغديرة شعرها الغزيرة ومنكبيها العريض وصدرها العالى والبسمة المشعة على وجهها النمش الرقيق ـ فقد استرعت عن غير عمد بتلر الذى كان عزبا فتيا قوى البنية . وقد بلغ به الأمر ان تخيل أنها تصبوا اليه ، غير انى اعتبر أن فى هذا اساءة الى رفيقه النقى السريرة ، الطيب القلب ، فعاملها معاملة بسيطة محترمة . ورضى عن نفسه اذ فعل ذلك .

كان يفكر فى هذا عندما قطع هواجسه وقع حوافر خيل كثيرة على طول الطريق المتربة أمامه كما لو كان رجال عديدون راكبين فى تلك الطريق . فنظر مستطلعا وراى فى نهاية الشارع جمعا من الخيالة

متجهين صوبه في نزهة . وفي مقــــدمة عشرين من القوزاق ركب رجلان : احدهما يلبس سترة شركسية بيضــــاء وعلى راسه عمامة طويلة . والثانى ضابط فى خدمة الروس ، أسمر ذو انف اقنى بذلته الرسمية واسلحته موشاة بكثير من الفضة . اما الرجل ذو العمامة فقد ركب فرسان مطهما كستنائيا له معرفة وذيل اخف لونا وراس صغير وعينان جميلتان . واما فرس الضابط فقد كان حصانا جسيما مليحا من كاراباخ . وقد ميز بتلر فى الحال ــ وهو من هواة الخيول ــ عظيم قوة الفرس الأول ، وتوقف ليعرف من يكون أولئك الرجال .

فخاطبه الضابط مستفهما وقد نم على اصله الأجنبى لهجته الاجنبية والفاظه : « هذا بيت الضابط المكلف بالقيادة » .

فأجاب بتلر بانه هو . واضاف وهو يزداد اقترابا من الضابط ويشير الى الرجل ذى العمامة : « ومن هذا ؟ » .

فقال الضابط : « هذا هو الحــــاج مراد ، لقد جاء الى هنا ليقيم مع القائد » .

نعم ، عرف بتلر عن الحاج مراد وعن استسلامه الى الروس ولكنه لم يتوقع قط أن يراه هنا فى ذلك الحصن الصغير . وقد نظر اليه الحاج مراد نظرة الصديق .

قال بتلر : « طاب يومك يا (كنكلدى) » مرددا التحية التترية التى تعلمهــا .

فأجاب الحاج مراد وهو يومىء براسه : « ساوبول » اى (سلمت) . وركب الى بتلر وامسك يده من الاصبعين اللتين تعلق بهما سوطه .

وسأل : « أانت الرئيس ؟ » .

قال بتلر مخاطبا الضابط : « كلا ، الرئيس هنا فى الداخل ، سأذهب واناديه » وصعد الدرج ودفع الباب ، الا ان باب مدخل الزوار ــ كما اسمته مارية ديمتريفنة ــ كان مغلقا . وبما انه ظل مغلقا بعد ما قرعه بتلر ، استدار الى البـــــاب الخلفى ، ونادى « مراسلته » فلم يتلق جوابا . ولما لم يجد أيا من (المراسلتين) دخل المطبخ حيث كانت مارية ديمتريفنة ــ وقد تورد خداها وربطت منديلا على راسها وطوت كميها على ذراعيها البيضاوين المكتنزين ــ تلف عجائن بيضاء كيديها ، وتقطعها قطعا صغيرة لتصنع منها فطيرا محشوا .

وسأل بتلر : « الى اين ذهب (المراسلتان) ؟ » .

فأجابت مارية ديمتريفنة : « ذهبا ليشربا قدحا من الخمر ، ماذا تريد ؟ » .

« يفتح الباب الأمامى ــ لديك ــ حشـــــد كامل من الجبليين امام بيتك . لقد اتى الحاج مراد ! » .

قالت مارية ديمتريفنة مبتسمة : « اخترع شيئا آخر ! » .

ــ « لست أمزح ، انه ينتظر الى جوار السقيفة حقا ! » .

قالت : « أحقا ذلك ؟ » .

ــ « لماذا ارغب فى ان اخدعك ؟ اذهبى وانظرى ... انه الى جوار الباب تماما ! » .

قالت مارية ديمتريفنة وهى تسدل كميها وتتحسس بيديها لتجس هل كل دبابيس الشعر التى فى غديرتها الغزيرة فى أحسن وضع : « يا سلام أى حدث هام ! سأذهب اذن واوقظ ايفان ماتفيتش » .

فقال ل « مراسلته » بتروف الذى ظهر توا : « كلا ، سأذهب بنفسى . وانت يابوندارينكو اذهب وافتح الباب » .

قالت مارية ديمتريفنة : « والله بركة ! » وانصرفت الى عملها .

فلما سمع ايفان ماتفيتش بتروف ــ وهو البكباشى الذى علم قبل ذلك بأن الحاج مرادا فى جروزنى ــ انه جاء الى بيته ، لم يندهش قط . وجلس فى فراشه ولف لفيفة تبغ وأشعلها وبدأ يرتدى ملابسه وهو ينفض حلقه فى صوت عال وينقم من اصحاب الشأن ارسالهم اليه « هذا الشيطان » .

وعندما تأهب امر (مراسلته) ان يحضر اليه بعض الدواء .. ولمــا كان (المراسلة) يعـــــرف أن « الدواء » يعنى « الفودكا » احضر له شيئا منها .

وبعد ان شرب البكباشى الفودكا وقضم قضمة من خبز الشيلم تمتم قائلا : « ليس شىء أسوأ من المزج » واضاف : « لقد شربت امس قليلا من خمر الشعير وأنا الآن مصدع الراس .. فليكن ... أنا متأهب » . وذهب الى الردهة التى كان بتلر قد سبق فقـــاد اليها الحاج مرادا والضابط الذى يرافقه .

وسلم الضابط البكباشى امرا من قائد الجناح الأيسر فحواه ان عليه ان يستقبل الحاج مرادا وان يأذن له فى الاتصال بالجبليين عن طريق الجواسيس على الا يسمح له بحال أن يزايل الحصن دون حراس من القوزاق .

وما كاد البكباشى يتلو الامر حتى نظر فى انتباه الى الحاج مراد وانعم النظر من جديد فى القرطاس . وبعد ان تنقل بعينيه مرارا بينهما على هذا النحو ركز نظره آخر الامر فى الحاج مراد وقال :

« يكشى بك يكشى ! (حسنا جدا يا سيدى ، حسنا جدا !) دعه يقيم هنا ، واخبره بأن لدى امرا بالا اتركه يخرج ... وما صدر به الامر فهو مقدس ! واين يفضل ان نؤويه فيما تظن يا بتلر ؟ هل تضعه بالمكتب ؟ » .

ولم يتسع الوقت امام بتلر لان يجيب قبل ان توجه الكلام للبكباشى مارية ديمتريفنة التى جاءت من المطبخ وظلت واقفة فى معبر الباب .

قالت ـ وهى ترنو الى الحاج مراد ، فلما التقت عيناها بعينيه تحولت عنه مسرعة : ـ « ولماذا ؟ ابقوه هنا ! سنعطيه غرفة الاضياف وغرفة الخزين اذ ذاك سيظل تحت نظرنا فى كل حال » .

قال بتلر : « نعم اظن ان مارية ديمتريفنة على حق » .

فقال البكباشى عابسا : « وبعد وبعد ، اذهبى بعيدا ، ليس للنساء من شأن هنا » .

وفى اثناء كل هذا الحوار جلس الحاج مراد ، ويده على مقبض سيفه ، وعلى شفتيه بسمة ازدراء حائلة : ، وقال ان كل المساكن عنده سواء ، وانه لا يبغى اكثر مما امر به السردار وهو اتصاله بالجبليين ، وانه على هذا يرغب فى ان يؤذن لهم بالمجىء اليه .

قال البكباشى : « ان هذا سينفذ ، وسأل بتلر ان يرحب بالضيفين حتى يتسنى ان يحضر لهما شىء يأكلونه وأن تعد غرفهم . وفى خلا هذا الوقت سيعبر هو الى الادارة ليكتب مايلزم وليعطى بعض الاوامر

وقد تحددت فى الحال وفى ضوء تام العلاقة بين الحاج مراد وبين معارفه الجدد . لانه منذ البداية لقى صدا من البكباشى كما انه احتقر هذا البكباشى وكان دائما يعامله فى كبرياء وترفع . فاما مارية

ديمتريفنة التى كانت تعد طعامه وتقدمه اليه فقد كانت موضع سروره بصفة خاصة ، لانه احب فيها بساطتها وبوجه خاص هذا النوع من جمالها الغريب بالاضافة اليه ، كما انه تأثر بالجاذبية التى أحست بها نحوه والتى احبته بها دون ان تشعر . وقد حاول الا ينظر اليها ويخاطبها ولكن عينيه كانتا تتجهان صوبها وتتأثران حركاتها . واما مع بتلر (منذ أول التعارف) فقد تصادق من فوره وتحدث اليه كثيرا وعن طيب خاطر ، فكان يسأله عن حياته الخاصة ويخبره عن حياته هو ، ويبلغه الأنباء التى تنقلها اليه الجواسيس عن أحوال اسرته . بل ذهب الى حد استشارته فى الطريقة التى ينبغى له أن يتصرف بمقتضاها .

ولم تكن الأخبار التى نقلها اليه الجواسيس طيبة . فقد أتوا اليه مرتين ـ فى خلال الأربعة الأيام الأولى لنزوله فى الحصن ـ وفيهما نقلوا اليه أنباء سيئة .

•

- ١٩ -

نقلت اسرة الحاج مراد الى فيدينو فور ارتداده الى الروس ، وهناك وضعت تحت الحراسة فى انتظار قرار شامل . فقد وضع النساء (امه العجوز فاطمة وزوجتاه مع اطفالهما الخمسة الصغار) تحت الحراسة فى دارة الضابط ابراهيم راشد . اما يوسف بن الحاج مراد ــ وهو فتى فى الثامنة عشرة ــ فقد القى فى السجن (اى فى حفرة يزيد عمقها على السبع الاقدام) مع سبعة من المجرمين كانوا مثله ينتظرون قرارا عن مصيرهم .

وقد تأخر صدور القرار لأن شاملا كان متغيبا فى حملة ضد الروس .

وفى السادس من يناير من سنة ١٨٥٢ عاد الى فيدينو بعد موقعة : يقول الروس أنه قهر فيها وفر الى فيدينو ، ويقول هو والمريدون جميعا انه انتصر وصد الروس . وفى هذه الموقعة اطلق غدارته بنفسه (وقلما كان يفعل ذلك) واستل سيفه وكاد يهوى راسا على الروس لولا أن رده المريدون الذين صحبوه ، وقتل منهم فى الحال اثنان الى جانبه .

وكان الوقت ظهرا عندما ركب شامل الى مقامه يحف به جماعة من المريدين يدورون حوله بافراسهم ، ويطلقون بندقياتهم وغداراتهم وينشدون بلا انقطاع (لا اله الا الله) .

وخرج جميع سكان المحلة الى الشوارع أو فوق اسطحهم للقاء حاكمهم ، واطلقوا كذلك بندقياتهم وغداراتهم ايذانا بالظفر . وكان شامل يركب جوادا عربيا ابيض اخذ يشد شكيمته عندما اقترب من البيت . ولم يتحل الجواد باية حلية من ذهب او فضة بل كان ما عليه من ابسط الانواع : لجام من جلد احمر دقيق الصنع ذو خط ملون تحت منتصفه وركاب معدنى على شكل الكاس ، وجوخة سرج حمراء تبرز قليلا من تحت السرج . وكان الامام يرتدى عطافا من قماش رمادى مبطن بفراء سود تبرز عند الرقبة والاكمام ، يشد شدا محكما حول خصره الطويل النحيل سير اسود يمسك خنجره . وكان يلبس على راسه « طاقية » طويلة عليها تاج مسطح ، ولها

زر اسود وقد لف حولها شال عمامة ابيض يتدلى احد طرفيه الى ما تحت عنقه . ولبس خفين اخضرين و (طوزلوق) اسود يزينه شريط بسيط .

ولم يلبس اى شيء براق ، فلا ذهب ولا فضة ، واما جسده الطويل المنتصب القوى الذى يكتسى اثوابا عاطلة عن الزينة تماما والذى يحف به المريدون ، يعلو حللهم واثوابهم الذهب والفضة ، فقد احدث فى الناس على وجه الدقة ــ الانفعال والأثر اللذين اراد ورغب فى أن يحدثهما . وكان وجهه الشاحب ــ الذى حفت به لحية ضاربة الى الحمرة بالغة التشذيب ، بعينيه الصغيرتين المصوبتين دائما الى اعلى ــ جامدا كانه قد من صخر . وقد استشعر ــ فيما كان راكبا عبر المحلة ــ شخوص الف عين مسددة اليه ، دون أن ينظر هو الى أحد .

وخرج زوجتا الحاج مراد الى السقيفة مع سائر نزلاء الدارة ــ ليشهدوا دخول الامام . اما فاطمة أم الحاج مراد الشيخة فهى وحدها التى لم تخرج ، بل ظلت جالسة على أرض الدارة ، يتدلى شعرها الأشيب ، وتطوق ذراعاها الطويلان ركبتيها الهزيلتين ، وتطرف بعينيها السوداوين المتقدتين فيما كانت ترقب الجذوات الهامدة فى الموقد . لقد كرهت دائما شاملا كما كرهه ولدها،وكرهته الآن اكثر من اى وقت مضى ، ولم تكن لها رغبة فى رؤيته . وكذلك لم يشهد ولد الحاج مراد دخول شامل المظفر . ولكنه سمع ــ وهو جالس فى الحفرة المظلمة المخمة ــ طلقات النار والانشاد ، وكابد عذابا لا يعرفه الا شباب ملئوا وطنية وحرموا الحرية . وانما شهد فقط رفقاءه المساجين السيئى الحظ القذرين المنهوكين ، شهدهم تبرحهم المرارة ويملأ قلوبهم حقد بعضهم على البعض الآخر فى اغلب الأمر ، حتى غدا الآن يحسد حسدا شديدا أولئك الذين يتمتعون بالهواء النقى والضوء والحرية ، ويدورون على جياد متقدة حول زعيمهم ، ويطلقون النار ، وينشدون من اعماق قلوبهم : (لا اله الا الله) .

وعندما عبر شامل المحلة ركب الى داخل الساحة الكبرى المتصلة بالساحة الداخلية حيث يقع بيت الحريم . فلقه لسفيان مسلحان لدى الأبواب الكبيرة المفتوحة لهذه الساحة الخارجية التى كانت تعج بالناس وقد جاء بعضهم من جهات نائية لشئونهم الخاصة ، واتى بعضهم بظلامات ، واستدعي شامل البعض ليحاكمهم ويحكم عليهم .

وفى اثناء ركوب الامام الى الداخل حياه الجميع فى احترام بوضع ايديهم على صدورهم ، وركع بعضهم وظلوا على ركبهم طوال ركوبه عبر الساحة من الابواب الخارجية الى الداخلية . ومع ان شاملا عرف من بين الناس الذين انتظــــروا فى الساحة كثيرين من الذين يكرههم وعددا عديدا من مقدمى الظلامات المتعبين الذين يريدون أن يوجه اليهم التفاته فقد مر بهم جميعا وعلى وجهــه التعبير نفسه الحجرى الجامد . ولما دخل الساحة الداخلية ترجل عند السقيفة امام جناحه الواقع الى يسار الباب . وكان ذهنه منهوكا اكثر من بدنه بسبب الجهد الذى اقتضته الحملة . اذ انه برغم الاعلام العام بأنه كان يعلم تمام العــــلم بأن غزوته كانت مخفقة وأن كثيرا من (المحلات) الششنية قد احرقت عن آخرها ودمرت وان الششنيين المترددين المتقلبين يتذبذبون ، وان أولئك الادنين من خط الحــدود على استعداد لأن ينضموا الى الروس .

كل هذا ينبغى تدبره ، وكان يضايقه لانه فى تلك اللحظة لم يكن راغبا فى التفكير اطلاقا ، انما اراد شــيئا واحدا : الراحة ومباهج حياة الأسرة وتدليل زوجه المفضلة امينة (صـــــاحبة العينين السوداوين ، الخفيفة الخطو ، ذات الثمانية عشر عاما) التى كانت فى تلك اللحظة ذاتها قريبة جدا من متناول يده خلف الحاجز الذى يقسم الساحة الداخلية ويفصل نزل الرجال عن نزل النساء (وقــد شعر شامل بأنها هناك يقينا مع ازواجه الأخريات تنظر من خصاص « شق » بالحاجز بينما كان يترجل) . ولــكن لم يكن من المستحيل عليه أن يذهب اليها وحسب بل لم يستطع حتى أن يرقد على وسادته المحشوة بالريش ويستريح من متاعبه . فقد كان عليه اولا أن يصلى فريضة الظهر التى لم يمل تلك اللحظة ادنى ميل الى ادائها ، والتى لم يكن ليستطيع اغفالها بوصفه الزعيم الدينى للشعب ، والتى أضحت ضرورية لكيانه كطعامه اليومى تماما . لذلك توضأ وصلى ، ونادى أولئك الذين كانوا فى انتظاره .

وكان أول الداخلين حموه وأستاذه جمال الدين ، وهو شيخ طويل اشيب حسن الشكل ذو لحية بيضاء كالثلج ووجه احمر وردى . فدعا دعاء ثم اخذ يستفهم من شامل عن وقائع الغزوة ويقص عليه ما حدث بالجبال فى أثناء غيبته .

ومن بين حوادث كثيرة الأنواع (كحالات القتل المتصلة بالخصومات الدموية ، وسرقة السائمة ، واتهام البعض بمخــــالفة الطريقة —

كالتدخين وشرب الخمر) قص جمال الدين كيف أرسل الحاج مراد رجالا ليجيئوا بأسرته الى الروس ، الا ان هذه المحـــاولة كشفت ، وجىء بالأسر الى فيدينو حيث وضعت تحت الحراسة فى انتظار قرار الامام . وفى الغرفة التالية غرفة الأضياف كان الشيوخ مجتمعين يتداولون فى كل هذه الشئون ، فنصح جمال الدين شاملا بأن يفرغ منهم ويدعهم يذهبون فى ذلك اليوم نفسه بما انهم منتظروه منذ ثلاثة ايام .

وبعد ان تناول شامل طعامه الذى قدمته له فى غرفته زيدة — وهى امراة سمراء حادة الانف كريهة المنظر لم يحبها ولكنها كانت أسن ازواجه — مضى الى غرفة الأضياف .

فنهض لتحيته لدى دخوله الشيوخ الستة الذين كونوا مجلسه الاستشارى . وكانت لحاهم ما بين بيضاء وشيباء وحمراء ، وكانت على رءوسهم طواق عالية يلف عليها بعضهم عمامة دون البعض ، وقد ارتدوا مشالح جديدة سترا شركسية تحزمها سيور تعلقت بهـــــا خناجرهم . أما شامل فقد ارتفع بعمامته حتى علتهم جميعا . وعندما دخل الغرفة رفع يديه — والآخرون معه — وقلب كفيه الى اعلى واغمض عينيه وتلا دعاء ومسح وجهه بكفيه نازلا حتى ضمها فى اقصى اللحية . وفى اثر ذلك جلسوا جميعا — وكانت الوســادة التى جلس عليها شامل اكبر من الأخريات — وتداولوا فى شتى المسائل التى أمامهم .

ففى مسألة المجرمين صدرت الأحكام وفق الشريعة : حكم على اثنين بقطع يد جزاء السرقة ، وعلى رجل باطاحة عنقه جزاء القتل ، وعفى عن ثلاثة . ثم واجهوا المسألة الكبرى : كيف يصدون الششنيين عن الانضمام الى الروس . وفى سبيل مقاومة هذه النزعة كتب جمال الدين البلاغ الآتى :

« انى ابتغى لــكم السلام الدائم مع الله القادر على كل شىء ! .

« انتهى الى أن الروس يتملقونكم ويغرونكم على الاذعان لهم . فلا تصدقوا ما يقولون ولا تذعنوا بل اثبتوا . ولئن لم تجزوا على ذلك فى هذه الحياة الدنيا فستجزون فى الحياة الآخرة . واذكروا ما حدث من قبل عندما أخذوا منكم سلاحكم ! ولو لم يحبوكم الله الحكمة اذ ذاك — فى سنة ١٨٤٠ — لكنتم الآن جنودا لهم ، ولاستباحوا نساءكم ، ولتعسر عليهن بعد أن يلبسن السراويل .

« واحكموا على المستقبل على ضوء الماضى . واولى بكم ان تموتوا على عداوة الروس من ان تعيشوا مع الكفار . صابروا قليلا ، وحتى آتى بالسيف والقرآن واقودكم ضـــــد العـــدو . اما الآن ، فانى آمركم امرا باتا : ليس فقط بالا تخامركم اية نية للاذعان الى الروس بل بالا تراودكم حتى الفكرة ! » .

ووافق شامل على هذا البلاغ ووقعه وامر باذاعته فى كل مكان .

وبعد هذه المسألة تداولوا فى حالة الحاج مراد ، وكانت بالغة الاهمية بالاضافة الى شامل . فهو يعلم ــ وان لم يشأ ان يعترف ــ بان لو كان معه الحاج مراد (بخفة حركته وجسارته وبسالته) لما حدث فى ششنيا ما حدث الآن . وعلى هذا فمن الخير الصلح مع الحاج مراد والافادة بخدماته من جديد . وبما ان هذا غير ممكن فلن يصح السـماح له بمسـاعدة الروس ، واذن فينبغى ان يغرى بالعودة ويقتل . وقد يتأتى لهم هذا : اما بارسال رجل الى تفليس بقتله هناك واما باغرائه بالعودة ثم القضاء عليه . والوسيلة الوحيدة للثانية هى استخدام اسرته وبخاصة ولده الذى يعرف شامل انه يولع بحبه . وعلى ذلك فيجب ان يعملوا عن طريق الابن .

ولما انتهى اعضاء المجلس من الكلام فى كل هذا اغمض شامل عينيه وجلس صامتا .

وبعد خمس دقائق من السكوت الرهيب فتح شامل عينيه ، ثم ضيقهما اكثر من المعتاد وقال :

ــ « ائتونى بابن الحاج مراد » .

فأجاب جمال الدين : « انه هنا » . وفى الواقع كان يوسف بن الحاج مراد (النحيل الشاحب المهلهل الكريه الرائحة ــ الذى لا يزال مع ذلك وسيم الوجه والقـوام ــ ذو العينين السـوداوين اللتين تتوقدان توقد عينى جدته فاطمة) واقفا بالفعـل الى جوار الباب الكبير للساحة الخارجية ينتظر ان يطلب للدخول .

ولم يكن يوسف يقاسم اباه شعوره نحو شامل . فهو لم يعرف كل ماحدث فى الماضى ، وان كان عرفه فهو لم يعش فيه ، ولذلك لم يدرك بعد لماذا يعاند ابوه شاملا ويناجزه الى هذا الحد . ولما كان لا يصبو الا الى شيء واحد ــ وهو ان يظل يحيا الحياة الهينة الطليقة التى

عاشها فى خان زاخ بوصفه ابن النائب ــ بدا له ان مناصبة شامل العداء غير ضرورية البتة . ومن باب التحدى وروح المناقضة لابيه اعجب بشامل بصفة خاصة وقاسم اهل الجبل شغفهم به الذى يقرب من العبادة . والآن دخل حجرة الاضياف فى شعور غريب من الرهبة والتبجيل للامام . ولم يكد يتلبث الى جوار الباب حتى التقى بالنظرة الثابتة من عينى شامل نصف المطبقتين . وسكن لحظة ثم دنا من شامل وقبل يده العريضة ذات الاصابع الطويلة .

ــ « انت ابن الحاج مراد ؟ » .

ــ « اجل ، ايها الامام » .

ــ « انت تعلم بما صنع ؟ » .

ــ « اعلم به ايها الامام وارثى له »

ــ « هل تستطيع ان تكتب ؟ » .

ــ « كنت اعد نفسى لان اصبح ملا . . . » .

ــ « اذن فاكتب الى ابيك بانه اذا رجع الى قبل العيد الكبير غفرت له وعاد كل شيء الى ما كان عليه قبلا . واذا لم يعد واذا بقى مع الروس . . . » وعبس شـــامل اشد عبوس « فسأوزع جدتك ووالدتك والبقية على (المحلات) اما انت فساضرب عنقك ! » .

ولم تطرف عضلة واحدة من عضلات وجه يوسف ، وحنى راسه ليبدى انه فهم الفاظ شامل .

ــ « اكتب هذا واعطه لرسولى » .

وامسك شامل عن الـكلام ونظر الى يوسف نظرة طويلة صامتة .

ــ « اكتب . . . . اشفق عليك ولن اقتلك ولكنى سافقا عينيك كما اصنع بكل الخونة . . . اغرب ! » بدا يوسف هادئا فى حضرة شامل ولكنه عندما اقتيد الى خارج غرفة الاضياف هجم على من كان معه وانتزع خنجر الرجل من غمده وحاول ان يطعن نفسه ، ولكنه امسك به من ذراعيه وقيد واقتيد من جديد الى الحفرة .

وفى غسق ذلك المساء ــ بعد ان انتهى شامل من صلاة المغرب ــ ارتدى عطافا مبطنا بفراء بيضاء ومضى خارجا الى الجانب الآخر من الحاجز حيث تسـكن ازواجه وقصـد راسا الى غرفة امينة فلم يجدها هناك فقـد كانت مع الازواج الاكبر سنا ولـما حاول شـامل ان يظل بعيدا عن الانظار استخفى وراء الباب ووقف ينتظرها . الا ان امينة كانت غاضبة عليه لانه اعطى بعض الاقمشة الحريرية لزيدة

لا لها . وقد راته يخرج من غرفتها ويدخلها باحثا عنها ولكنها تعمدت ان تظل بعيدة . ووقفت فترة طويلة على باب غرفة زبدة تضحك ضحكا ناعما على صورة شامل البيضاء وقد ظل يدخل غرفتهـــا ويخرج منها .

وبعد أن انتظر شامل من غير طائل عاد الى جناحه وقد حان وقت صلاة العشاء (١) .

(١) ورد فى الاصل خطأ فى التوقيت صوبه المترجم .

- ٢٠ -

بقى الحاج مراد اسبوعا فى منزل البكباشي بالقلعة . ومع ان مارية ديمتريفنة تعاركت مع حنفى الاشعث (ولم يكن الحاج مراد قد احضر معه الا اثنين من مريديه وهما حنفى والدار) وطردته من المطبخ ــ وكاد أن يقتلها من جراء ذلك ــ مع ذلك كان من الواضح انها شعرت نحو الحاج مراد باحترام وعطف خاصين ولم تعد الآن تقدم له عشاءه بل عهدت بهذا الواجب الى الدار ، غير انها انتهزت كل فرصة لتراه وتقوم على خدمته ولم تفتأ تعير المفاوضات الخـــاصة باسرته اشد اهتمام وقد عرفت كم زوجا وكم ولدا واعمارهم . وكلما اتى جاسوس ليراه استعملت كاحسن ما تستطيع عن نتائج المفاوضات.

وفى اثناء هذا الاسبوع توثقت أواصر الصداقة بين بتلر وبين الحاج مراد . فتارة ياتى الاخير الى غرفة بتلر ، وطورا يذهب بتلر الى غرفة الحاج مراد ، وحينا يتحدثان بمساعدة الترجمان ، ومرة يتفاهمان جهد استطاعتهما بالاشارات وبخاصة بالبسمات .

وقد تجلى أن الحاج مرادا استطلف بتلر حسبما تستطاع معرفته من علاقة الدار بالاخير . اذ كلما دخل بتلر غرفة الحاج مراد استقبله الدار بابتسامة ودودة مبينا عن اسنانه اللامعة . وخف ليبسط له وسادة يجلس عليها ولرفع سيفه عنه ان كان يحمل سيفا .

واعتاد بتلر على أن يعرف ــ بل صادق ــ (حنفى) الأشعث اخاه الحاج مراد فى العهد واحسن معاملته وكان حنفى يعرف كثيرا من اغانى الجبل ويحسن انشادها وكثيرا ما كان الحاج مراد ــ لكى يدخل السرور على بتلر ــ يطلب الى حنفى أن ينشـــد متخيرا له الاغانى التى يراها افضل وكان صوت حنفى ثلاثيا صداحا (تينور) وانشاده غاية فى الوضوح وحسن التعبير . وقد استرعت نظر بتلر اغنية راقت الحاج مرادا بصفة خاصة بسبب لحنها المحزن الخاشع ، فسأل المترجم ترجمتها .

وكان موضوع الأغنية ذلك العراك الدموى الذى سبق حدوثه بين حنفى والحاج مراد . وقد تسلسلت كما يلى :

سيجف الثرى فوق قبرى ايتها الام ، يا اماه ! وسوف تنسينني .

وسيتماوج فوق المتكاثر من الكلا ايها الاب ، يا ابت ! وسوف لا تأسين على ! وعندما تكف الدموع عن غسل عينيك السوداوين ابتها الأخت ، يا اختاه ! فلسوف لا يبريك الضنى .

اما انت يا أخى الاكبر فلسوف لا تتسانى ابدا مع الثار الذى خانني ! .

وانت يا اخى الاصغر فسوف تاسف ابدا حتى ترقد الى جوارى .

ويا ايتها الرصاصة التى تحمل الموت والتى طالما ازريت بها . لقد وافيت حامية . وما كنت قط عبدة لى ! .

وانت ايتها الأرض السوداء التى وطئتها ومخضها اجواء الحرب ، انك ستغطى قبرى ! .

ما ابردك ايها الموت ، ومع هذا فقد كنت ربك ومولاك ! .

ولئن كان جسدى سريع الغوص فى جوف الارض ، فروحى اسرع فى طيرانها الى اطباق السماء .

وكان الحاج مراد يصغى دائما الى هذه الاغنية مطبق العينين ، فاذا ما انتهت على ايقاع ممتد متلاش تدريجيا لاحظ دائما باللغة الروسية :

— « أغنية طيبة ! اغنية حكيمة ! » .

وبعد أن وصل الحاج مراد وتوثقت روابط الالفة به وبمريديه وزاد استيلاء شعر الحياة الجبلية المثير على بتلر حصل لنفسه على مشالح وسترة شركسية و (طوزلوق) وخال نفسه من أهل الجبال يحيا الحياة التى يحياها أولئك الناس .

وفى يوم رحيل الحاج مراد دعى البكباشى لتوديعه ضباطا عديدين وكانوا جالسين : بعضهم الى المائدة التى كانت مارية ديمتريفنة تصب الشاى عليها ، وبعضهم الى مائدة اخرى استقرت عليها فودكا وخمرة الشعير ومنعشات اخرى ، كذلك كانوا عندما جاء الحاج مراد — وقد لبس استعدادا للرحلة — يعرج الى داخل الغرفة بخطى هينة سريعة .

فنهضوا جميعا وصافحوه ، وقدم له البكباشى مقعدا على الاريكة غير ان الحاج مرادا شكره وجلس على كرسى بجوار النافذة .

ولكنه لم يرتبك قط من السكون الذى تبع دخوله . وانما تطلع فى انتباه الى كل الوجوه وركز نظرة عدم اكتراث على مائدة الشاى التى عليها السامو فارا (1) والمنعشات . وسال الحاج مرادا بتروفسكى

(1) الساموفار براد شاى كبير من النحاس يغلى الشاى ويصبه لعدد وافر من الناس فى وقت واحد ، ويستعمل احيانا على انه حلية شرقية .

— وهو ضابط همام لقيه الآن اول مرة — وذلك عن طريق المترجم :

— هل راقته تفليس ؟ .

فاجاب : « اليا » .

وترجم المترجم . « يقول (نعم) » .

— « ماذا اعجبه هناك ؟ » .

وقال الحاج مراد شيئا جوابا على ذلك .

— « اكثر ما راقه المسرح » .

— « حسنا راقه الفترج فى بيت القائد العام ؟ » .

وعبس الحاج مراد وقال وهو يرنو الى مارية ديمتريفنة : « لكل امة عاداتها الخاصة بها ! ونساؤنا لا يلبسن على هذه الصورة » .

— « حسنا — الم يرقه ؟ » .

فقال الحاج مراد للمترجم : « عندنا مثل سائر (قدم الكلب للحمار لحما ، وقدم الحمار للكلب علفا ، فجاع كلاهما) » وابتسم . « وتبدو عادات كل امة طيبة فى نظر اهلها » .

ولم تمتد المحادثة الى ابعد من ذلك . وتناول بعض الضباط شايا وبعضهم منعشات اخرى ، وتقبل الحاج مراد قدح الشاى الذى قدم له ووضعه امامه .

— الا تتناول « قشدة وقرصة ؟ » هكذا سالت مارية ديمتريفنة وهى تقدمهما اليه .

وحنى الحاج مراد راسه .

وقال بتلر وهو يمس ركبته : « حسنا ، اظن ان علينا ان نودع ! متى نلتقى ثانية ؟ » .

فقال الحاج مراد بالروسية وهو يبتسم : « وداعا وداعا ! » وهز راسه فى الاتجاه الذى عليه أن يسير فيه وقال بالتترية : « اودعك يا اخى .. يا اخى المحارب ، اودعك ، حان الوقت » « .. اذهب » .

وظهر الدار فى معبر الباب يحمل شيئا فضفاضا ابيض على كتفه من جانب لآخر وسيفا فى يده . واوما اليه الحاج مراد فعبر الغرفة فى خطى واسعة واعطاه طيلسان ابيض وسلمه السيف . ونهض الحاج مراد واخذ الطيلسان ورماه فوق ذراعه وقال شيئا للمترجم وسلمه لمارية ديمتريفنة .

قال المترجم : « يقول انك استحسنت الطيلسان فتقبليه » فقالت مارية ديمتريفنة وقد احمر وجهها خجلا . « أوه : لماذا ؟ » .

قال الحاج مراد : « ذلك لابد منه كآدم » .
فقالت مارية ديمترييفنة وهى تأخذ الطيلسان : « اذن فشكرا »
واضافت : « وليعنك الله على خلاص ولدك ، قل له اننى ادعوه له بالنجاح فى فك أسار ولده » .

ورنا الحاج مراد ديمترييفنة واطرق براسه موافقا ، ثم اخذ السيف من الدار وسلمه للبكباشى ، فتسلمه وقال للمترجم : « قل له يتقبل فرسى الخصى الأشقر ، وليس عندى شىء غيره اقدمه له » ..

ولوح الحاج مراد بيده امام وجهه ليبدى انه لا يبتغى شيئا وانه لن يقبله واشار اولا الى الجبال ثم الى قلبه وخرج .

وتبعه كل اهل المنزل الى الباب بينما سحب الضباط ـ الذين بقوا داخل الغرفة ـ السيف من غمده وتفحصوا نصله وقرروا انه جردة (١) اصيل .

وصحب بتلر الحاج مرادا الى السقيفة . ثم طرا حادث لم يكن متوقعا اصلا كان يمكن ان ينتهى بالقضاء على الحاج مراد لولا سرعة ملاحظته وعزمته وخفة حركته .

ذلك ان سكان طاش كيشو (المحلة الكموخية المتحابة مع الروس) كانوا يبجلون الحاج مراد كل التبجيل وطالما أتوا الى الحصن لا لشىء الا لينظروا الى النائب الذائع الصيت . وكانوا قبل ذلك بثلاثة ايام قد انفذوا اليه رسلا يسالونه ان يزور مسجدهم يوم الجمعة ولكن امراء كموخ الذين كانوا يعيشون فى طاش كيشو كانوا يكرهون الحاج مرادا اذ كان بينهم وبينه عداء دموى مستحكم فبمجرد سماعهم بتلك الدعوة اعلنوا على الناس ان عليهم الا يأذنوا له فى دخول المسجد. فتهايج الناس ونشب قتال بينهم وبين انصار الأمراء . فطيب الروس خاطر الجبليين وارسلوا كلمة الى الحاج مراد بالا يذهب الى المسجد .

ولم يذهب الحاج مراد ، وظن كل أمرىء أن الأمر قد تمت تسويته .

ولكن فى لحظة رحيله تماما ، عندما خرج الى السقيفة التى امامها وقفت الخيل تنتظر ، ركب الى البيت أرسلان خان وهو امير من امراء الكموخ واحد معارف بتلر والبكباشى .

وما كاد يقع نظره على الحاج مراد حتى انتزع غدارة من حزامه وصوبها ولكن قبل أن يتسنى له أن يطلق النار انقض الحاج مراد رغم

(١) نوع من النصل ذائع الصيت .

عرجه منحدرا من السقيفة كالسنور صوب ارسلان خان الذى إخطاه .

وامسك الحاج مراد بيد فرس ارسلان خان من شكيمته واستل خنجره باليد الأخرى وصرخ فيه بكلم تترى .

وعدا بتلر والدار من فورهما صوب الأعداء وامسكاهم من اذرعهم وكذلك خرج البكباشى الذى سمع الطلقة .

وقال عندما سمع بما حدث : « ماذا تقصد يا أرسلان باثارة مسالة قذرة امام مسكنى ؟ ليس هذا صوابا يا صديقى ! (لا داعى لأن تخضع للعدو فى ميدان القتال) ! اما ان تبدأ مذبحة كهذى أمام بيتى .. » .

ونزل أرسلان خان من فوق حصانه ـ وهو رجل ضئيل ذو شارب اسود ـ شاحبا مرتعدا ونظر مغضبا الى الحاج مراد ودخل البيت مع البكباشى . اما الحاج مراد فقد تنفس تنفسا بطيئا وابتسم وعاد الى الخيل ، وسأل بتلر المترجم : « لم اراد قتله ؟ » .

وترجم المترجم اجابة الحاج مراد : « يقول ان هذا من شرائعهم ، وعلى أرسلان ان يقتص لدم قريب له ولذا حاول قتله » .

فسأل بتلر : « واذا فرض انه باغته فى الطريق ؟ » .

• وأبتسم الحاج مراد .

ـ واذا قتلنى فهذا دليل على ان تلك هى ارادة الله » وقال بالروسية مرة اخرى : « وداعا » . وامسك الفرس من غاربه . ودار بنظرة على كل من اتى لتوديعه واستكان فى رفق على مارية ديمترييفنة وقال لها : « وداعا ياصبيبتى وشكرا » .

واعادت مارية ديمترييفنة : « أعانك الله ، أعانك الله على انقاذ أسرتك ! » .

ولم يفهم كلماتها ولكنه استشعر انعطافها اليه ومأ اليها براسه .

وقال بتلر : « اوصيك بالا تنس اخيك فى العهد » .

فجاوب الحاج مراد المترجم « قل له بأننى صديقه الحميم ولن انساه ابدا » وعلى رغم رجله القصيرة اعتلى فى خفة وسرعة السرج العالى وهو لا يكاد يمس الركاب وبحركة تلقائية تحسس خنجره وعدل سيفه ثم ركب وانطلق بعيدا عن بيت البكباشى بذلك المظهر الأشم الذى لا يواتى الا لقوقازى جبلى يستقر فوق فرسه كانه والفرس جسم واحد وركب حنفى والدار ، وبعد أن ودعا مضيفهما والضباط انطلقا يركضان فى أثر مرشدهما .

واخذ الذين بقوا متخلفين يجادلون فى الذين ارتحلوا كما يحدث

عادة لدى كل سفر .

— « فتى مقدام ! لقد انقض على ارســلان خان كالذئب ، وتغير وجهه كل التغير ! » .

فلاحظ بتروفسكى : « ولكنه سيلجأ الى المخادعة ، انه وغـد مخوف ، احسبه كذلك » .

فتدخلت مارية ديمتريفنة فجاة وهى مغيظة . « يؤسفنى انه لا يوجد مزيد من الأوغاد الروس الذين على هذه الشاكلة ! لقد عايشنا اسبوعا ولم تر منه الا كل خير » واضافت : « انه مجامل حكيم مستقيم » .

— « كيف كشفت هذا ؟ » .

— « المهم اننى كشفته ! » .

وقال البكباشى الذى دخل الغرفة لتوه : « انها كالمأخوذة ، هـذه حقيقة ! » .

— « وحسنا ، واذا كنت كالمأخوذة فماذا يضيرك ؟ لم تنال منه مادام رجلا طيبا ؟ انه تترى نعم ، ولكنه مع ذلك رجل طيب ! » .

فقال بتلر : « هذا جد صحيح يا مارية ديمتريفنة ، ولك كل الحق فى أن تنحازى له ! » .

- ٢١ -

وجرت الحياة فى حصوننا الأمامية بالخطوط الشىشنية كالمعتاد : ووقع منذ الحوادث المذكورة آنفا هجومان فجائيان استدعيت اليهما السرايا وعدا رجال الجيش المرابط هنا وهناك : غير ان الجبليين الذين تسببوا فى الهـــــرج فروا فى الحالتين . وفى ذات مرة بفوزد فزهنسك قتلوا واحدا من القوازق ونجحوا فى اختطاف ثمانية أفراس قوقازية كانت ترتوى . ولم تحدث غارة اخرى بعد تلك التى احرقت فيها المحلة . ولكن حملة ضخمة كانت منتظرة تبعا لتعيين قائد جديد للجناح الأيسر وهو الأمير بادياتنسكى ، وهو صديق قديم لنائب القيصر كان يقود فرقة الكاربادا . وعند وصوله الى جروزنى بصفته قائدا للجناح الشرقى جميعا حشد فى الحال سرية لتستمر فى تنفيذ اوامر القيصر حسبما ابلغها تشرنيشوف الى فورونتسوف وزايلت الحصن الفصيلة التى حشدت فى فوزد فزهنسك واتخذت لها موقعا بالقرب من الكورين حيث كانت الجنود تعسكر وتجندل الغابة .. وكان فورونتسوف الصغير يســكن فسطاطا فاخرا من القماش ، وكثيرا ما جاءت زوجة مارية فاسيلفنة الى المعسكر وباتت ليلتها . ولم تكن صلات بارياتنسكى بمــارية فاسيلفنة خافية على على أحد . وكان الضباط الذين لا ينتمون الى جماعة الارستقراطية والجنود يسبونها بالفاظ نابية لأن حضورها الى المعسكر يترتب عليه صدور الأمر بقضاء ليلتهم فى كمين . وقد اعتاد الجبليون أن يحملوا مدافع الى أبعاد تدخل المعسكرات فى مرماها ويطلقوا عليها القنابل وكانت القنابل تخطىء هدفها بوجه عام . ولذلك لم تتخذ اجراءات خاصة فى الأوقات العادية لمنع أمثال هذه الطلقات . أما الآن فيوضع الرجال فى الكمين لصد الجبليين عن ايذاء مارية فاسيلفنة او ازعاجها بمدافعهم . وكان حملهم على البقاء فى الكمين اثناء الليل لتجنيب سيدة الخوف يسىء اليهم ويضايقهم ولذلك كان الجنود والضباط الذين لا يسمح لهم بالاندماج فى الطبقة العالية ينعتون ماريا فاسيلفنة باقبح الاوصاف وحصل بتلر على اجازة للتغيب من الحصن وجاء الى المعسكر ليزور بعض عشرائه القدامى من شـــباب المدرسة

الحربية وزملائه من فرقة الكورين الذين عملوا مساعدين وضباط مراسله .

ولدى اول وصوله امضى وقتا طيبا ، فقـــد انزل فى خيمة بولتوريتسكى وهناك لقى معارف كثيرة رحبوا به ترحيبا قلبيا . وكذلك عرج على فورونتسوف الذى عرفه معرفة بسيطة اذ عمل واياه مرة فى فرقة واحدة . وقـد رحب به فورونتسوف ، وقدمه الى الامير باريانتسكى ، ودعاه الى عشاء الوداع الذى كان يعده اكراما للقائد كوزلوفسكى ، وكان هذا يقود الجناح حتى وصول باريانتسكى .

وكان العشاء فاخرا . وقد نصبت خيام صفا واحدا ، وعلى طولها جميعا بسطت مائدة كما تبسطت فى وليمة عشاء مع ما يلزمها من ادوات ومع زجاجات الخمر . وكان كل شيء يذكر بالحياة فى حرس بطرسبرج وقدم العشاء فى الساعة الثانية وجلس فى الوسط كوزلوفسكى من ناحية وباريانتسكى من الناحية الاخرى وعلى يمين كوزلوفسكى وساره فورونتسوف (والزوجة) والى جانبى المائدة جميعا ضباط من فرقتى الكباردا والكورين . وجلس بتلر الى جانب بولتوريتسكى ، وتسامرا فى حبور وشربات مع الضباط الذين حولهم .. وعندما قدم الشواء وطاف (المواسلات) وملأوا كئوس الشمبانيا قال بولتوريتسكى لبتلر فى اهتمام حقيقى :

— « سيجلب صديقنا كوزلوفسكى لنفسه الخزى ! » .

— « لماذا ؟ » ..

— « لماذا ؟ سيلقى خطبة ، وما قدرته على احسان الكلام ؟ .. ليس هذا فى سهولة الاستيلاء على خنادق تحت وابل النيران ! اضف وجود سيدة الى جانبه ووجود هؤلاء الارستقراطيين ! » .

وقال الضباط بعضهم لبعض : « ان من المؤلم النظر اليه حقا » .

والآن جاءت اللحظة الرهيبة ونهض باريانتسكى ورفع كأسه ووجه خطابا قصيرا الى كوزلوفسكى . فلما فرغ نهض كوزلوفسكى — الذى كان دائما يبالغ فى الاحتيال على استعمال كلمتى « كيف ان » اكثر مما يجب — وبدأ بقوله :

— « امتثالا لارادة صاحب الجلالة الرفيعة الشان اترككم ، افارقكم ايها السادة . ولكن اعتبروا اننى باق بينكم دائما . وتعرفون ايها السادة صدق المثل السائر : كيف ان (الرجل بمفرده فى الميدان لن يكون بطلا) .. وعلى ذلك كيف ان كل مكافأة نلتها . كيف ان الانعم التى فاضت على من واسع كرم ملكينا الامبراطور .. كيف ان كل

مكانتى .. كيف ان سمعتى الطيبة .. كيف ان كل شيء على وجه التحقيق .. كيف ان .. » (وهنا تهدج صوته) « .. كيف اننى مدين بها لكم ، ولكم وحدكم ايها الاصدقاء ! » . وزاد تغضن الوجه المجعد ونشج (١) وانهالت الدموع من عينيه : « وكيف اننى اقدم لـكم من قلبى عرفانى الخالص الصادر من صميم الفؤاد ! » .

ولم يستطع كوزلوفسكى ان يمضى فى الخطابة بل استدار حوله وبدأ يقبل الضباط . واخفت الاميرة وجهها فى منديلها ، وطرف الامير بعينيه وانحرف فوه ، وابتلت اعين كثير من الضباط ، ولم يستطع بتلر — الذى لم يكد يعرف كوزلوفسكى — ان يكبح دموعه ، وقد احب كل هذا كثيرا .

ثم تلت انخاب اخرى ، وكانت فى صحة باريانتسكى وفورونتسوف والضباط والجنود ، وترك الزوار المائدة مخمورين بالنبيذ وبالزهو العسكرى الذى كانوا دائما عرضة له . وكان الجـو عجبا مشمسا هادئا والهواء بليلا منعشـــا . وقعقعت نيران الزينة ورنت اصـداء الاناشيد فى كل جانب حتى ليظن ان كل واحد يحتفل بحادث سعيد. وجاء بتلر الى بولتوريتسكى فى اسعد الحالات النفسية واحفلهـــا بالعواطف . وهناك تجمع ضـباط عديدون واقيمت منضـدة للعب الورق . وبدأ ملازم « نبكا » بمائة روبل : ونزل بتلر الخيمة مرتين او ثلاثة ويده تقبض على كيس النقود فى جيب سراويله ولكنه لم يستطيع آخر الامر ان يقاوم الاغراء اكثر مما قاوم ، وبرغم الوعد الذى كان قطعه لاخيه وعلى نفسه بالا يلعب بدأ يفعل ذلك . وقبل ان تمضى ساعة اشتدت حمرة وجهه وتصبب عرقه وعلق الطباشير بملابسه وكان جالسا ومرفقاه على المنضدة يكتب عليها تحت اوراق اللعب المنكفئة للاركان والناولون (٢) — ارقام مراهناته . وقد خسر حتى الآن كثيرا حتى انه خشى أن يحصى ما كان عليه أن يدفعه من المراهنات . ولكنه عرف من دون أن يحصى أن كل ما يستطيع أن يدفعه سلفا بالاضافة الى ثمن حصانه لن يفى بدفع ما خطه ضده الملازم وهو غريب عنه . وكان يود مع ذلك أن يستمر فى اللعب الا أن الملازم القى فى عبوس الاوراق التى كان يمسكها فى يديه العريضتين النظيفتين واضاف الارقام المكتوبة بالطباشير لمراهنات بتلر الخاسرة . واضطرب بتلر وبدأ ينتحل اعذارا عن عدم استطاعته دفع كل ديونه

(١) نشج « من باب ضرب » غص بالبكاء من غير انتحاب .
(٢) هذه اصطلاحات من لعبة « شتس » .

دفعة واحدة قائلا انه سيرسلها من البيت وعندما فاه ذلك لحظ ان الجميع أشفقوا عليه وانهم قاطبة حتى بولتوريتسكى اجتنبوا لقاء عينيه . وكانت تلك ليلته الاخيرة هناك وفكر فى أنه ما كان عليه الا ان يمتنع عن اللعب الا وأن يذهبوا الى آل فورونتسوف الذى دعوه ، واذ ذاك يمسى كل شيء على ما يرام . أما الآن فليس الأمر فقط على غير ما يرام بل انه فظيع .

واستأذن من زملائه ومعارفه ، وركب عائدا الى بيته ، وذهب الى فراشه ونام ثمانى عشرة ساعة كما ينام الناس عادة عقب خسارة كبيرة . ومن واقع سؤاله اياها ان تقرضه خمسين كوبكا ليدفعها حلوانا للقوزاقى الذى رافقه وحرسه من نظراته الحزينة واجاباته القصيرة حزرت مارية ديمتريفنة انه خسر فى لعب الورق ولامت البكباشى لاعطائه اياه اجازة غياب .

فلما استيقظ فى ظهر اليوم التالى وتذكر الموقف الذى كان فيه تاق من جديد لأن يغرق فى النسيان الذى طلع منه توا ، الا أن ذلك كان مستحيلا وتحتم اتخاذ الوسائل لدفع الاربعمائة والسبعين روبلا التى عليه للغريب . وكانت الوسيلة الاولى ان يكتب لأخيه معترفا بخطيئته ويتضرع اليه المرة الاخيرة أن يقرضه خمسمائة روبل بضمان المصنع الذى ما يزالان يملكانه معا ثم كتب الى قريبة شحيحة يسألها ان تقرضه خمسمائة روبل بأى معدل ربح تريد . واخيرا ذهب الى البكباشى علما بأن لديه ــ او بالاحرى لدى مارية ديمتريفنة ــ بعض المال وسأله ان يقرضه خمسمائة روبل .

فقال البكباشى : « أريدك على أن تأخذها حالا ولكن (ماشا) لن ترضى ! ان هؤلاء النسوة منقبضات اليد الى حد بعيد.. يا للشيطان ! من ذا الذى يستطيع أن يفهمهن ؟ . وبرغم هذا يجب أن تخرج من هذا المأزق بطريقة ما ، خذه اليك ايها الشيطان ؟ . الا يملك شيئا هذا الحيوان ــ امين المقصف ؟ » .

ولكن لم يكن هناك أمل من الاقتراض من امين المقصف وعلى هذا فنجدة بتلر تصدر اما عن أخيه أو عن قريبته البخيلة .

- ٢٢ -

ولما لم يتسن للحاج مراد أن يقضى لبانته فى ششنيا عاد الى تفليس واخذ فى كل يوم يذهب الى فورونتسوف ، وكلما استطاع ان يحظى بمقابلة نائب القيصر توسل اليه أن يجمع الأسرى الجبليين ويستبدل بهم أسرته . وقال : ما لم يتم ذلك فيداه مغلولتان ولن يستطيع أن يخدم الروس ويهلك شاملا كما هى رغبته . وكان فورونتسوف يعد فى غموض بأن يصنع ما يسعه ثم يؤجل قائلا انه سوف يستقر على رأى عندما يصل الى تفليس القائد ارجوتنسكى ويتدبر معه الأمر .

ثم سأل الحاج مراد فورونتسوف ان يأذن له فى ان يذهب ليسكن فترة فى نوخا وهى بلدة صغيرة وراء القوقاز حيث يستطيع فيما يقدر ان يجرى مفاوضات فى موضوع اسرته بطريقة أحسن مع شامل ومع الناس المخلصين له شخصيا . وزيادة على ذلك فنوخا بلدة اسلامية وفيها مسجد يستطيع به فى يسر ان يقيم شعائر الصلاة التى تقضى بها الشريعة الاسلامية . وكتب فورونتسوف الى بطرسبرج فى هذا الشأن واجاز للحاج مراد فى الوقت نفسه الذهاب الى نوخا .

قد برزت القصة من اولها ــ باضافة الى فورونتسوف والى السلطات فى بطرسبورج والى اغلب الروس الذين يعرفون تاريخ الحاج مراد ــ على أنها تحول سعيد فى الحرب القوقازية أو فى القليل على أنها حادث شائق اما بالاضافة الى الحاج مراد فقد كانت ازمة فظيعة فى حياته وعلى الأخص فى المدة الاخيرة ، فلقد فر من الجبل لينجو بنفسه من جهة ، وبدافع عداوته لشامل من جهة أخرى . وبالرغم من ان هذا الفرار كان شاقا فقد وصل الى غرضه وفرح بنجاحه فترة ما ، ورسم فى الواقع خطة لمهاجمة شامل ، الا ان انقاذ أسرته ــ الذى خاله سهل المنال ــ اثبت انه أصعب مما توقع .

وقبض شامل على الأسرة واحتجزها على انها من الأسرى ، وهدد بأن يسلم النساء الى (المحلات المختلفة وأن يعمى الابن أو يقتله) .

والآن ذهب الحاج مراد الى نوخا بقصد ان يحاول ــ بمساعدة انصاره فى داغستان انقاذ اسرته من شامل بالقوة او بالحيلة وقد اخبره

الجاسوس الأخير الذى جاء الى نوخا ليراه ان الموالين له من الأفاريز يعدون عدتهم لأن يختطفوا اسرته ويسلموها بأنفسهم الى الروس ، الا ان عددهم لا يكفى ، ولذا لا يستطيعون ان يخاطروا بالمحاولة فى فدينو حيث يحتجز الأسرة الآن ، ولن يتسنى لهم ذلك الا اذا نقلت الاسرة من فدينو الى مكان آخر ، وقد وعدوا بأنهم فى هذه الحالة ينقذونها فى الطريق وأرسل الحاج مراد كلمة الى أصحابها فحواها أنه مستعد لأن يدفع ثلاثة آلاف روبل لتحرير اسرته . وخصص له فى نوخا منزل مكون من خمس غرف بالقرب من المسجدوسراى الخان . واقام فى البيت ذاته الضباط المكلفون بحراسته ومترجمه وخدمه وقضى الحاج مراد حياته فى ارتقاب الرسل من الجبال واستقبالهم وفى رياضات ركوب الخيل الى الضواحى التى كان يؤذن له بها .

وفى الرابع والعشرين من ابريل عندما عاد من احدى تلك الرياضات علم بوصول موظف من تفليس ، فى اثناء تغيبه من قبل فورونتسوف وبرغم شوقه لمعرفة الرسالة التى أحضرها له الموظف ذهب الى غرفة نومه وصلى الظهر قبل ان يذهب الى الغرفة التى كان ينتظر فيها الضابط المكلف بالحراسة والموظف . وكانت الغرفة تستعمل للجلوس والاستقبال . واعلم الموظف الذى جاء من تفليس — وهو المستشار كيريللوف — الحاج مرادا برغبة فورونتسوف فى حضوره الى تفليس فى اليوم الثانى عشر للقاء القائد ارجونتسكى .

فقال الحاج مراد فى غضب : « يكشى » . ولم يرقه الموظف . « هل احضرت نقودا ؟ » .

فأجاب كيريللوف : « احضرت » .

فقال الحاج مراد وهو يرفع اولا كلتا يديه ثم أربعة أصابع : « منذ اسبوعين الآن ... هات هنا ! » .

قال الموظف مستخرجا كيس النقود من حقيبة السفر : « سنعطيكها فى الحال » . واستطرد يقول بالروسية وهو يظن ان الحاج مرادا لن يفهم : « ماذا يريد ان يصنع بالنقود ؟ » . ولكن الحاج مرادا فهم وحدق فيه غاضبا . وأراد المستشار — فى أثناء استخراجه النقود — ان يبدأ حديثا مع الحاج مراد كى يكون عنده شىء يخبر به الأمير فورونتسوف لدى عودته ، فسأل عن طريق المترجم ، ألا يشعر بملل هناك . ونظر الحاج مراد من ركن عينه فى زراية الى الرجل القصير البدين الأعزل الذى يلبس كالمدنيين ولم يجب . وأعاد المترجم السؤال :

— « قل له اننى لا استطيع ان أتحدث اليه ! ودعه يعطينى النقود ! »
ولم يكد الحاج مراد يقول هذا حتى جلس الى المائدة متأهبا لعدها .

وكانت راتب الحاج مراد اليومى خمس قطع ذهبية . وعندما استخرج كيريللوف النقود ورتبها سبعة اكوام فى كل كوم عشر قطع ذهبية ودفعها صوب الحاج مراد ، عند ذلك صب الأخير الذهب فى داخل كوم سترته الشركسية ، ونهض ، وعلى غير انتظار صفع المستشار كيريللوف على هامته الصلعاء واستدار ليمضى .

وقفز المستشار الى اعلا وأمر المترجم بأن يخبر الحاج مرادا بأنه ما ينبغى له ان يجرؤ على ان يسلك معه مثل هذا السلوك وهو الذى يشغل رتبة توازى رتبة اميرالاى ! وأمن على هذا الضابط المكلف بالحراسة ولكن الحاج مرادا لم يزد على ان اطرق براسه ليشير الى انه يعرف ، ثم زايل الغرفة .

قال الضابط المكلف بالحراسة : « ماذا يستطيع المرء ان يصنع معه ؟ فقد يرشق فيك خنجره ، وينتهى الأمر ! ان الانسان لا يستطيع ان يحادث أولئك الشياطين !ارى انه اخذ يستشيط غضبا » .

ولم يكد الفسق يبدأ حتى جاءه من الآكام جاسوسان يغطى وجهيهما الى العينين قلنسوتان ، فقادهما الضابط المكلف بالحراسة الى غرفة الحاج مراد . وكان احدهما بدينا أكمد (١) من اهل تافلنيا والثانى رجلا عجوزا نحيلا . ولم تكن الأخبار التى نقلاها سارة . اذ ان أصدقاء الحاج مراد الذين اخذوا على عواتقهم انقاذ اسرته يمانعون الآن فى ذلك ممانعة باتة خوفا من شامل الذى توعد بانزال افظع التعذيب بكل من يحاول مساعدة الحاج مراد . فلما استمع للرسولين جلس ومرفقاه على رجليه المتقاطعتين وأحنى راسه المعمم وظل صامتا وقتا طويلا .

واعمل التفكير فى عزم وثبات . وكان يعرف أنه يتدبر الأمر الآن المرة الأخيرة وأن من واجبه الانتهاء الى قرار . واخيرا رفع راسه واعطى لكل من الرسولين قطعة ذهب ، وقال : « انطلقا ! » .

— « أى جواب سيكون ؟ » .

— « سيكون الجواب كما يريد الله ... انطلقا ! » .

ونهض الرسولان وانصرفا وظل الحاج مراد جالسا على السجادة

(١) الاكمد : من تغير لونه وذهب صفاؤه .

يتكىء بمرفقة على ركبتيه ، وعلى هذا النحـو جلس طويلا واخـذ يتامل .

وفكر : ماذا على ان اصنع ؟ آآخذ شاملا بكلامه واعود اليه ؟ انه ثعلب وسوف يخاتلنى . وحتى اذا لم يخاتلنى فمن المستحيل مع ذلك الاذعان « لهذا الكذاب الاحمر ... مستحيل ... لانه وقد عملت الآن مع الروس لن يثق بى » . هكذا فكر الحاج مراد ، وتذكر اسطورة معروفة فى تافليـا موضوعهـا باز (١) اصطيد وعاش بين بنى الانسان ، وعاد بعد ذلك الى فصيلته بالآكام . عاد يلبس قيدا ذا اجراس ، فلم تستقبله البزاة بل قالت له : « طر عائداً الى حيث علقوا بك هذه الأجراس الفضية ، فنحن لا اجراس لدينا ولا قيود » . ولم يبتغ البازى أن يرحل عن وطنه ومكث ، الا ان البزاة الاخر لم يريده على أن يبقى هناك ونقروه حتى مات .

وجال فى خاطر الحـاج مراد : « ولسوف ينقروننى حتى اموت على هذه الوتيرة . فهل ابقى هنا واخضع القوقاز لحساب القيصر الروسى وانال الصيت والالقاب والغنى ؟ » .

وفكر وهو يتذكر محادثة مع فورونتسوف وعبارات الاطراء التى قالها له الأمير : « هذا يتسنى عمله ، ولكن ينبغى لى أن اقرر فورا والا اهلك شامل اسرتى » .

وفى تلك الليلة ظل مستيقظا يفكر .

(١) البازى : طائر من فصيلة الصقر والجمع بزاة « بضم ففتح » .

- ٢٣ -

والى ان وافى منتصف الليل كان قد استقر على قرار . قرر أن يطير الى الجبال ويدخل فدينو عنوة مع من ظل على ولائه له من الاقاربين على أن يهلك أن ينقذ اسرته . وأما هل يعود بعد انقاذها الى الروس أو يفر الى خان زاخ ويقاتل شاملا فهذا ما لم يستقر عليه . وكان كل ما يعرفه انه ينبغى له قبل كل شىء أن يفر من الروس الى الجبال . وبدأ من فوره ينفذ الخطة .

وسحب مشلحه الاسود الملبد من تحت وسادته وذهب الى غرفة تابعيه ، وكانوا يسكنون الجانب الآخر من البهو . ولم يكد يدخل البهو الذى ظل بابه الخارجى مفتوحا حتى لفته طراوة الليلة الندية التى يضيئها القمر وملأ آذانه صفير عدد من العنادل (١) وزغردتها فى روضة المنزل .

وعبر البهو وفتح باب تابعيه ولم يكن هناك نور ولكن القمر فى تربيعه الاول أرسل ضياءه الى الداخل من النافذة . وكانت منضدة وكرسيان قائمة ناحية بالغرفة ، وكان اربعة من تابعيه راقدين فوق السجاجيد أو الطيالس على الأرض ، ونام حنفى فى الخارج مع الخيل وسمع جمزالو الباب يصر فنهض وتلفت حوله ورآه . ولما عرفه رقد من جديد . اما الدار الذى يرقد الى جواره فقد هب واقفا واخذ يلبس مشلحة فى انتظار أوامر سيده.واستمر خان محمد وباطة فى النوم . والقى الحاج مراد على المنضدة المشلح الذى احضره والذى صدمها بصوت خفى أو واهن صدر عن الذهب المخيط فيه .

وقال الحاج مراد وهو يسلم الدار القطع الذهبية التى تسلمها فى ذلك اليوم : « خبىء هذه ايضا من الداخل » . فاخذها الدار وذهب فى الحال ومضى تحت ضوء القمر وسحب سكينا صغيرا من تحت خنجره واخذ يفتق خياطة بطـانة المشلح . ونهض جمزالو وجلس ورجلاه متقاطعتان .

فقال الحاج مراد : « وانت يا جمزالو ، قل للرجال أن يتفحصوا البندقيات ويعـدوا الذخيرة ، فسنذهب غدا » فاجاب جمزالو :

(١) العنادل : جمع عندليب وهو طائر صغير حسن الصوت .

ـ « لدينا الرصاص والبارود ، وسيكون كل شيء معدا » . وهدر في صوت عال بشيء غير مفهوم . وفهم فيم امر الحاج مراد بتعبئة البندقيات . ولم يشته منذ البداية الا شيئا واحدا وهو ان يذبح ويطعن اكبر عدد ممكن من الروس ثم يفر الى الآكام ، ونمت هذه الشهوة يوما بعد يوم . وقد راى الآن على الأقل ان الحاج مرادا يريد ذلك فطابت نفسه .

ولما انصرف الحاج مراد ايقظ جمزالو رفاقه ، وامضى اربعتهم ما بقى من الليل يتفحصون بندقياتهم وغراراتهم وصواناتهم (١) وعتادهم ، ويستبدلون بما تلف منها ، ويذرون بارودا جديدا في الاوعية ، ويسدون برصاص ملفوف في خرق بالية مزيتة رزما (٢) تحوى كل منها القدر المضبوط من البارود لكل طلقة ويشحذون سيوفهم وخناجرهم ، ويدهنون نصالها بالشحم .

وقبل ان ينبلج الصباح خرج الحاج مراد مرة اخرى الى البهو يبتغي الماء لوضوئه واصبحت الآن اغاريد العنادل التى انطلقت تستخفها النشوة فجرا اكثر تعاليا واتصالا بينما سمع من غرفة تبعه ـ حيث كانت تشحذ الخناجر ـ طن الحديد واحتكاكه المنتظم الضربات على الحجر .

واستحضر الحاج مراد لنفسه بعض الماء من دن ووصل فعلا الى بابه عندما سمع من غرفة مريديه ـ فوق اصوات شحذ النصال ـ نغمات صوت حنفي العالية وهو ينشد اغنية معروفة ، فوقف ليستمع . وقد وصفت الأغنية كيف غنم من الروس احد البواسل ـ حمزة ـ مع اتباعه الشجعان قطيعا من الأفراس البيضاء ، وكيف اقتفى اثره امير روسى الى ما وراء (ترك) واحاط به مع جيش كبير كالغابة ثم استطردت تصف كيف قتل حمزة الافراس وكيف خندق رجاله خلف الحصن الخاثر (٣) وحاربوا الروس طالما وجد رصاص في بندقياتهم وخناجر في احزمتهم ودم في عروقهم . على ان حمزة قبل موته راى طيورا تطير في السماء فصاح بها :

طيرى ايتها المجنحات ، طيرى الى منازلنا !
وخبرى امهاتنا وخبرى اخواتنا وخبرى عذارانا البيض .
اننا متنا محاربين في سبيل الغزو ،

(١) الصوانه « بفتح فشدة » : حجر شديد يقدح فيصدر عنه شرر وهى اول مراحل استحداث النار .
(٢) الرزمة بكسرة فسكون : ما جمع وشد معا .
(٣) خثر من باب نصر وسمع : ثخن واشتد .

خبريهن ان جسومنا لن ترقد ابدا في القبور .
فستلتهمها الذئاب وتمزقها اربا اربا ،
وستنقر الأغربة اللحم ، والنسور عيوننا .

وبهذا انتهت الأغنية . وعند الكلمات الأخيرة التى انشدت بلحن حزين انضم صوت باطة المرح القوى يهتف عاليا « لا اله الا الله ! » انتهى بصياح حاد . ثم سكن كل شيء من جديد ، اللهم الا من « تشك تشك تشك تشك » ومن صفير العنادل من الحديقة والا شحذ الاسلحة الرتيب ، ومن هسهسة (١) الحديد ينزلق في سرعة على طول المسن وكان الحاج مراد غارقا في الفكر الى حد انه لم يلاحظ كيف امال الابريق حتى اخذ الماء ينسكب منه . فهز راسه مبهوتا ودخل الغرفة من جديد وبعد ان توضا لصلاة الصبح فحص عن اسلحته وجلس على فراشه . ولم يبق امامه ما ينبغى عمله ولكى يسمح بالركوب الى الخارج كان عليه ان يستأذن الضابط المكلف بالحراسة ولكن كان ضوء النهار لم ينبثق بعد والضابط المكلف بالحراسة ما يزال نائما .

واذكرته اغنية حنفى بالاغنية التى الفتها امه عقب ولادته مباشرة وهى الاغنية التى وجهت الى ابيه واعادها الحاج مراد على لوريس ميليكوف .

وخيل له ان يرى امه امامه غير متغضنة ولا شيباء ، مفلجة الاسنان كعهده بها اخيرا ، الا انها كانت شابة مليحة قوية الى درجة استطاعت معها حمله في سلة على ظهرها عبر الجبال الى ابيها ، وذلك عندما كان صبيا ثقيل الوزن في الخامسة من عمره .

وقد اذكرته ذكراه لنفسه طفلا صغيرا بابنه المحبوب يوسف الذى حلق له شعر راسه بنفسه اول مرة ـ وقد اصبح يوسف هذا الآن باسلا فتيا وسيما ـ وصوره لنفسه كحاله عندما رآه آخر مرة يوم رحل عن تسلمس ، وقد احضر اليه يوسف الفرس وساله ان يسمح له بمرافقته .

وكان كامل اللبس والتسلح « وقاد فرسه الخاص من عنانه وقد نم وجهه الوسيم الوردى وكل جسمه الطويل الناحل على الجراة والشباب والفرح بالحياة (وكان اطول من ابيه) . وكان الحاج مراد ـ الذى يعجب بابنه ـ ويسره دائما عرض منكبيه رغم صغر سنه

(١) هسهس الدرع او الحلى : صات .

وبالحرقفتين (١) الفضتين البالغتى الاتســـاع ، وبالخصر الطويل الرشيق ، وبشدة ذراعيه الطويلتين ، وبقوة حركاته ومرونتها وخفتها جميعا .

قال الحاج مراد : « خير لك ان تبقى . ســـتكون وحدك بالمنزل الآن . اعتن بأمك وجـــدتك » تذكر النظرة الجريئة الأبية ونشوة السرور التى أجاب معهما يوسف بقوله انه ما دام حيا فلن يمس احد امه او جدته بسوء . ومع ذلك فقد ركب يوسف ورافق والده حتى انجدول ، وهنا استدار عائدا ومنذ ذلك الوقت لم ير الحاج مراد زوجه ولا امه ولا ولده ، وهذا هو الولد الذى هدده شامل بفقء عينيه ! ولم يشأ الحاج مراد ان يفكر فيما عسي أن يصنع بزوجه .

وقد استثارته هذه الأفكار الى حد انه لم يقدر على أن يجلس فى سكون بعد فهب قائما وذهب فى سرعة يعرج الباب وفتحه ونادى الدار . ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد ولكن الضوء كان كافيا جدا . وكانت العنادل ما تزال تغنى .

فقال : « اذهب واخبر الضابط باننى اريد ان اخرج راكبا ، واسرج الأفراس » .

(١) الحرقفة « كالبسملة » : راس الورك وجمعها حراقف وحراقيف .

- ٢٤

وكان عزاء بتلر الوحيد كل هذا الوقت الشعر الحربى الذى انقطع له ، ليس فقط فى اثناء ساعات العمل ولكن فى حياته الخاصة كذلك وكان يلبس بدلته الشركسية ويركب متبخترا هنا وهناك . وذهب مرتين فى كمين مع بجدانوفتش وان لم يكشفا او يقتـــلا احدا فى المرتين . وقد بدأ لبتلر ان قربه من بجدانوفتش ومصـــادقته اياه ـ هو المشهور بالشجاعة ـ من دواعى سروره وظهوره بمظهر البسالة . ووفى دينه بعد أن اقترض المال من يهودى بالربا ، ومعنى هذا انه ارجأ مشاكله دون ان يحلها . وجهد فى الا يفـكر فى مركزه وأن يجد السلوان ليس فى الشعر الحربى وحسب بل فى الخمر كذلك ، فصار يشرب منه فى كل يوم اكثر مما شرب فى امسه واخذ خلقه يضعف يوما بعد يوم ، حتى لم يصبح الآن ذلك اليوسف العفيف الذى كانه فيما يخص مارية ديمتربيفنة ، بل على العكس اخذ يغلط فى مطارحتها الغرام ، فلم يلق لدهشته الا صدا قويا صريحا سجل عليه العار .

وفى آخر ابريل وصلت الى الحصن فصيلة عزم بارياتنسكى على ان يصيب بها تقدما مباشرا الى قلب ششنيا التى أعتبرت حتى ذلك الوقت مما لا يمكن اجتيازه . وضمت هذه الفصيلة سريتين من فرقة الكاباردا كانت سرايا الكورين ، بمقتضى العادات القوقازية ، تعاملهما معاملة الضيوف . وانزل الجنـــود فى الثكنات وأولهم لهم عشاء لا يشمل عصيدة الحنطة السوداء ولحم البقـــر وحسب بل كذلك الفودكا . وشارك الضباط فى مساكن ضباط الـــكورين ! وأولم المقيمون للذين اتوا حديثا ـ كما هى العادة ـ عشاء انشد فيه مغنو الفرقة وانتهى بدورة كئوس ولما ثمل البكباشى بتروف واستحال وجهه فصار ممقتع اللون اغبره جلس على كرسى متباعد الساقين كانما يركب فرسا ، واستل سيفه وطعن اعادى وهميين واخذ يسب ويضحك بالتعاقب ، يقبل احدهم تارة وطورا يرقص على ايقاع اغنيته المفضلة :

« بدأ شامل يثور فى الايام التى خلت

فحاول (ول ول ول) عن السنين التى تلت ! » .
وكان بتلر هناك ايضا . فحاول ان يرى الشعر الحربى حتى فى هذا وان أسف من اعماق نفسه على البكباشى ، ومهما يكن فقد كان اسكاته مستحيلا ، ولما شعر بان الابخرة تصعد الى صميم راسه زايل الفرقة فى سكون وذهب الى بيته .

واضاء القمر البيوت البيضاء والحجارة التى على الطريق . وكان الضوء قويا الى حد ان كل حصاة وكل قشة وكل كومة صغيرة من التراب كانت ظاهرة للعيان . ولما شـارف بتلر البيت لقى مارية ديمتريفنة وعلى راسها ورقبتها شال. وكان قد اجتنبها بعد الصدمة التى صدمته اياها شعورا منه بالخجل. اما الآن تحت ضوء القمر وبعد الخمر الذى شربه فقد سره ان يلقاها ورغب فى ان يصالحها من جديد .

وسأل : « الى اين تنطلقين ؟ » .

فأجابت فى ايناس : « لاسأل عن رجلى العجوز » . وكان صدها لتودد بتلر صادرا عن اخلاص وتصميم الا انها لم تحب اجتنابه اياها كما فعل آخر الأمر .

ــ « فيم تزعجين نفسك من أجله ؟ سيعود حالا » .

ــ « ولـكن هل يفعل ؟ » .

ــ « ان لم يعد فسيأتون به » .

ــ « هو كذلك ، ... هذا حق كما تعلم ! ... ولكن أتظن الاولى بى الا اذهب ؟ » .

ــ « نعم اظن . وخير لنا أن نذهب الى البيت » .

واستدارت مارية ديمتريفنة ومشت الى جانبه . وسطع ضياء القمر حتى بدا كأن هالة تتحرك على طول الطـريق حول خيالى راسيهما . وكان بتلر ينظر الى تلك الهالة معتزما أن يخبرها بأنه يميل اليها كعهده دائما ، ولكنه لم يعرف كيف يبدأ . وانتظرته لعله يتكلم . واسريا صامتين الى قرب الدار عندما ظهر بعض الخيالة من حول الزاوية . وكان هذان ضابط وحارسه .

فقالت مارية ديمتريفنة وهى تخطو نحو الخارج : « من هـذا الذى يأتى الآن ؟ » وكان القمر الى خلف الراكب فلم تميزه حتى اتى اليهم . وكان القادم بطرس نيقولايفتش كامينيف ، وهو ضابط سبقت له الخدمة مع البكباشى ولذا تعرفه مارية ديمتريفنة فقالت تخاطبه : « أهذا انت يا بطرس نيقولايفتش ؟ » .

قال كامينيف : « انه اياى . آه بتلر ، كيف حالك ؟ » ألم تنم بعد ؟ تتمشى مع مارية ديمتريفنة ! الاولى أن تلقى بالك والا وهبك الضابط اياها ... أين هو ؟ .

وأجابت مارية ديمتريفنة مشيرة الى الناحية التى تصل منهـا أهازيج تنشد على ايقاع صوت طلمباس : (١) . « استمع الى تلك الناحية ! انهم يقيمون حفل انس » .

ــ « فيم ؟ ايقيم قومك حفل انس فيما بينهم ؟ » .

ــ « كلا ، وانما وصل بعض الضـباط من هساف يورت فاحتفل بهم » .

ــ « آه ، هذا حسن ؟ سآتى فى الموعد المناسب ... والآن اريد ان ارى البكباشى لحظة » .

فسأل بتلر : « فى عمل ؟ » .

ــ « اجل موضوع عمل بسيط » .

ــ « خير أو شر ؟ » .

ــ « حسب الظروف .. خير لنا وشر لبعض الناس » . وضحك كامينيف والى تلك اللحظة كانوا قد وصلوا الى بيت البكباشى .

فصرخ كامينيف مخاطبا واحدا من رجاله القوزاق : « يا شيخيريف ايت الى هنا ! » .

وركب زعيم قـوزاقى من بين الآخرين . وكان يلبس البذلة الرسمية المعتادة وحذائين عاليين ودثارا ويحمل خلفه خرجه (٢).

قال كامينيف وهو يترجل : « حسنا ، سنستخرج الأشياء . وترجل القـوزاقى كذلك واستخرج كيسا من الخرج ، فأخذه كامينيف وأولج يده .

ــ « اسمع . هل أريك مستحدثا ؟ أسوف لا تخافين يا مارية ديمتريفنة ؟ » .

فأجابت : « وفيم اخاف ؟ » .

فقال كامينيف « ها هو ذا ! اتعرفه ؟ » ، واستخرج رأس رجل ورفعها فى ضوء القمر .

وكان رأسا حليقا ، ذا حاجبين ناتئين ولحية وشارب أسودين مقصوصين الى حد القصر ، تنفتح احدى عينيه وتغمض الأخرى نصف غمضة . وكانت الجمجمة الحليقـة ملفوفة ، ولكن لا الى

(١) الطلمباس : طبل يدق على نوع من الاوانى المعدنية كالغلايات .
(٢) الخرجة : « كالقطعة » جمع خرج .

نهايتها ، وبالانف دم متجمد ، وكانت الرقبة ملفوفة فى فوطة ملطخة بالدماء . وبصرف النظر عن الجراح العديدة الموجودة بالراس عبرت الشفتان الزرقاوان عن معنى من معانى الطفولة الرقيقة .

ونظرت اليها مارية ديمتريفنة واستدارت بعيدا واسرعت الى البيت دون ان تنبس بكلمة . ولم يستطع بتلر ان ينزع عينيه عن الراس المروع فلقد كان ذلك راس الحاج مراد الذى امضى معه اخيرا جدا امسيته فى لقاء ودى .

فسأل : « ما معنى هذا ؟ من الذى قتله ؟ » .

— « اراد ان يفلت منا فوقع فى الفخ » ! قال كامينيف هذا واعاد الراس الى القوقازقى وذهب الى البيت مع بتلر .

واضاف : « لقد مات ميتة البطل » .

— « ولكن كيف حدث كل هذا ؟ » .

— « انتظر قليلا . عندما يأتى البكباشى ساخبرك بكل شىء عنه ، فهذا ما اوفدت من اجله . وساطوف به على كل الحصون (والمحلات) واعرضه » .

وارسل فى طلب البكباشى فعاد يرافقه ضابطان آخران مخموران مثله — واخذ يقبل كامينيف .

قال كامينيف : « ولقد احضرت لك راس الحاج مراد » .

— « كلا .. اقتل ؟ » .

— « اجل ، اراد ان يهرب » .

— « لقد كنت اقول دائما انه سوف يخدعهم ! واين هو ؟ .. اقصد الراس .. دعنا نره » .

ونودى على القوزاقى فاستحضر الكيس الذى فيه الراس واستخرجه ونظر اليه البكباشى طويلا بعينين ثملتين .

فقال : « ومهما يكن فقد كان فتى ظريفا . دعنى اقبله ! .

وقال احد الضباط : « صحيح . لقد كان راسا صنديدا » .

وبعد ان نظر الجميع اليه اعيدت الى القوزاقى الذى دسه فى كيسه محاولا ان يخفف اصطدامه بالارض جهد المستطاع .

وسأل ضابط : « اسمع يا كامينيف ، اى خطاب تلقى عندما تعرض الراس ؟ » .

فصرخ البكباشى : « لا لا .. دعنى اقبله ، لقد اعطانى سيفا ؟ » .

وخرج بتلر الى السقيفة .

وكانت مارية ديمتريفنة جالسة على الدرجة الثانية ، فنظرت

من حولها الى بتلر ثم استدارت من فورها فى غضب .

فسأل : « ما خطبك يا مارية ديمتريفنة ؟ » .

— « كلكم سفاحون ! انى أمقت هذا ... انكم سفاحون حقا » !

ونهضت .

ولاحظ بتلر غير عارف بما ينبغى له أن يقول : « قد يحدث هذا لاى امرىء .. تلك هى الحرب » .

ورددت وهى تنزل الدرج وتدخل البيت من الباب الخلفى :

— « الحرب الحرب ، معلوم ! سفاحون ولا شىء غير ذلك . جسد الميت يجب أن يعاد الى الأرض ، ومع ذلك يسخرون هناك ؟ .. سفاحون حقا » .

وعاد بتلر الى الغرفة وطلب الى كامينيف أن يقص عليه تفصيلا كيف حدث هذا الأمر .

وقص عليه كامينيف ، واليك هو ما حدث .

•

سمح للحاج مراد ان يخرج راكبا الى ارباض المدينة ولـكن على الا يكون ذلك بغير حرس من القوزاق ، ولم يكن فى نوخا منهم غير نصف سرية كان الضباط يستخدمون منهم عشرة . فاذا ارسل الى الخارج عشرة مع الحاج مراد (بناء على التعليمات الواردة) تحتم على هؤلاء الرجال ذاتهم ان يذهبوا مرة فى كل يومين . وعلى هذا ، فبعد ان ارسل الى الحاج مراد عشرة فى اليوم الاول تقرر ان يرسل فى المستقبل خمسة ليس غير ، وطلب الى الحاج مراد الا يستصحب جميع تابعيه . الا انه فى الخامس والعشرين من ابريل خرج راكبا مع الخمسة جميعا ، فلما ركب ولحظ (القومندان) ان تابعيـــه الخمسة ذاهبون معه اخبره بان من المحرم استصحابهم جميعا . غير ان الحاج مرادا تظاهر بانه لم يسمع ، ومس فرسه ، فلم يصر (القومندان) .

وركب مع القوزاق نزاروف وهو ضابط صف يحمل صليب سان جورج لشجاعته . وكان فتى صغيرا قوى البنية ، احمر الشعر داكنة له نضرة الورد . وكان هو الاكبر سنا بين اسرة فقـــيرة من طائفة « المؤمنين القدماء » ، ترعرع ولا والد له ، وكان يعول امه العجوز وثلاث اخوات واثنين من الاخوة .

فصاح (القومندان) : « الق بالك يانزاروف . لازمه ؟ » .

فأجاب نزاروف : « سمعا وطاعة يا حضرة المحترم ؟ » وارتقى ركابه واحكم وضع البندقية التى علقت فوق ظهره وبدأ يخب (١) على ظهر كميته (٢) الخصى الضخم الجميل وتبعه اربعة من القوزاق وهم : فرابونتوف وهو طويل نحيف ولص وقاطع طريق مثابر (وهو الذى باع جمزالو بارودا) واجناتوف وهو فلاح ضليع يباهى بقوته وان لم يظل شابا وقد اوشك على نهاية خدمته العسكرية ، وميشكين وهو صبى واهن كان كل امرىء يضحك منه ، وبتراكوف الفتى الاشقر والابن الوحيد لامه وكان دائم الظرف والمرح .

(١) اخب الفرس : راوح بين يديه ورجليه اى قام على احداهما مرة وعلى الاخرى مرة .
(٢) الكميت من الخيل : « بضم ففتح » للمذكر والمؤنث ما كان لونه بين الاسود والاحمر وهو تصغير كمت « بضم فسكون » .

وكان الصباح كثير الضباب ولـكنه صحا فيما بعد . اما ورق الشجر المتفتح ، والحشائش الحديثة العذراء ، والحنطة النابتة ، وتموجات النهر السريع التى ترى فى وضوح الى يمين الطريق ، فقد تألقت جميعا فى ضياء الشمس .

وركب الحاج مراد يتقدم مستانيا وفى اثره القـــوزاق وتابعوه . ركبوا للنزهة على طول الطريق الذى يلى الحصن . ولقوا نساء يحملن سلالا على رءوسهن ، وجنودا يسيرون مركبات ركوب ، ومركبات نقل صاخبة يجرها جواميس . فلما قطع الحاج مراد نحـــو ميل ونصف مس فرسه الكردى الابيض فبدأ يعـــدو عدوا ارغم التبع والقوزاق على ان يخبوا خببا سريعا ليحاذوه .

فقال فيرابونتوف : « آه ، لديه فرس جميل تحته ، ولو انه ظل عدوا لانزلته فى الحال » .

ــ « نعم ايها الزميل ، لقد عرضت ثلثمائة روبل فى تفليس ثمنا له » . .

قال بتراكوف : « ولكنى استطيع ان اسبقه بفرسى ! » .

ــ « تسبقه انت ؟ شيء محتمل ؟ » .

وظل الحاج مراد يزيد فى سرعة خطوه .

فصرخ نزاروف وقد اخذ يدرك الحاج مرادا : « هيه ايهـــا الاخ ، ما ينبغى لك ان تصنع هذا ، اثبت ؟ » .

وتلفت الحاج مراد من حوله ولم يقل شيئا بل استطرد راكبا فى السرعة ذاتها .

فقال اجناتوف : « الق بالك ، لابد ان هؤلاء الشياطين يبيتون شيئا ! انظر كيف يمرقون » .

وهكذا ركبوا قاطعين ما يقرب من الميل متجهين الى الجبال .

فصاح نزاروف : « اقول لك ان هذا لا يفى بالغرض ؟ » .

ولم يجب الحاج مراد ولم يتلفت وانما زاد فى سرعته الى درجة العـدو .

فصرخ نزاروف وهو يخز فرســـــه ليسرع . « كلام فارغ ! لن تفلت » والهب ظهر خصية الضخم الكميت بضربة من سوطه ، وارتفع فوق ركاب سرجه ، وانحنى الى الامام ، وطار باقصى سرعة فى اثر الحاج مراد .

وكانت السماء جد مشرقة والجو جد صحو ، وعزفت الحياة فى روح نزاروف اعذب الالحان عندما اصبح فوق فرسه القوى الجميل

جسما واحدا وطار على طول الطريق الناعمة السلسة خلف الحاج مراد ، هذا الى حد ان احتمال حدوث اى شيء يحزن او يخيف لم تدر بخلده . وقد تهلل لانه كان فى كل خطوة يدنو من الحاج مراد .

وقدر الحاج مراد من وقع حوافر الفرس الضخم المتدانية من خلفه انه سيلحق فى الحال : فامسك غدارته بيمناه ، واخذ فى خفة يكبح بيسراه جواده الذى اهاجه سماع وقع الحوافر من خلفه .

وهتف نزاروف وقد وازى الحاج مرادا او كاد ومد يده ليمسك عنانه « لا ينبغى لك ، اسمع الكلام ! الا ان رصاصة اطلقت قبل ان يدرك ذلك العنان فصاح ممسكا بصدره . « ماذا انت صانع ؟ عليكم بهم يا رفاق ! » وترنح ووقع الى امام على قربوس (١) السرج .

ولكن الجبليين سبقوا فى اعداد اسلحتهم واطلقوا غداراتهم على القوزاق وانقضوا عليهم باسيافهم .

وتعلق نزاروف برقبة الفرس الذى نهب الارض ركضا حول رفاقه . وسقط الفرس الذى تحت اجناتوف وهرس رجله . واستل اثنان من الجبليين سيفهما دون ان يترجلا واجتزا راسه وذراعيه . وكان بتراكوف على وشك ان ينقض لنجدة رفاقه عندما اصابته رصاصتان ـ احداهما فى صدره والثانية فى جنبه ـ وخر من فوق فرسه كالجوالق (٢) .

واستدار مشكين وانطلق صوب الحصن ، واندفع من خلفه حنفى وباطة ولكنه كان قد ابتعد بونا شاسعا ولم يقدروا على ادراكه . فلما رأوا انهم لن يستطيعوا ان يلحقوا به عادوا الى الآخرين .

واستلقى بتراكوف على ظهره ممزق المعدة متجها بوجهه الفتى الى السماء ، وصار يلهث ابتغاء التنفس كالسمكة .

وبعد ان قضى جمزالو بسيفه على اجناتوف حصد نزاروف ايضا والقاه من فوق فرسه .

واخذ باطة اجربة الفشك من الذين قتلوا . ورغب حنفى فى ان ياخذ فرس نزاروف ولكن الحاج مراد نادى عليه بأن يتركه واندفع الى الامام على طول الطريق . وعدى مريدوه فى اثره وقد طردوا فرس نزاروف الذى حاول أن يتبعهم . وكانوا قد وصلوا الى حقول الأرز التى تبعد اكثر من ستة اميال عن نوخا عندما اطلق عيار نارى من قلعة ذلك المكان للتنبيه .

(١) قربوس السرج : قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره .
(٢) الجوالق : ما يسميه العامة بالشوال .

« يا رحمن يا رحيم ! يا الله ، يا رب ! ماذا صنعوا ؟ » هكذا هتف قائد الحصن وهو يمسك راسه بيديه عندما سمع بهرب الحاج مراد . وصاح وهو يصغى الى بيان مشكين : « لقد آذونى ! لقد تركه يفلت اولئك الاوغاد ! » .

واعلن انذار الخطر فى كل مكان ، ولم يرسل قوزاق تلك الجهة وحدهم خلف الفارين بل ارسلت كذلك كل وحدات الجيش المرابط التى تسنى حشدها من (المحلات) الموالية لروسيا . واعلن عن مكافأة قدرها الف روبل مقابل القبض على الحاج مراد حيا أو ميتا . ولم تمض ساعتان على فراره وفرار تابعيه من القوزاق حتى كان مائتا فارس يتبعون الضابط المكلف وهم يعدون ليدركوا الفارين ويقبضوا عليهم .

وبعد ان ركب الحاج مراد بضعة اميال فى الطريق العامة اوقف فرسه اللاهث الذى بلله العرق وانقلب من ابيض الى رمادى .

وكان من الممكن ان يرى الى يمين الطريق دارات (محلة) بنردزهيك ومآذنها والى يسارها بعض الحقول يليها النهر . ومع أن الطريق الى الجبل واقعة الى اليمين فقد استدار الحاج مراد الى اليسار فى الجهة المضادة مقدر ان من المؤكد ان يتجه متعقبوه يمينا ، بينما يهجر هو الطريق ويعبر الالزان ويخرج عبر الطريق العام الى الجهة الاخرى حيث لا ينتظر قدومه أحد ، ثم يركب ازاءها الى الغابة ، وبعد ان يعبر النهر مرة اخرى يتخذ طريقه الى الجبل .

فلما انتهى الى هذه النتيجة استدار يسرة ، ولكن ظهر ان الوصول الى النهر من المستحيل ، وقد اغتمر توا حقل الارز الذى كان ينبغى عبوره كما يجرى عادة فى الربيع حتى اضحى مستنقعا غاصت فيه قوائم الخيل الى ما فوق ارساغها (١) . فاستدار الحاج مراد وتابعوه تارة الى اليمين وطورا الى اليسار املا فى العثور على ارض اكثر تيبسا ، الا ان الحقل الذى ارتادوه كان جميعه مغتمرا كذلك واضحى الآن مشبعا بالماء .

واستخرجت الخيل قوائمها من الطين اللزج الذى غاصت فيه محدثة صوتا بطقة كطقة الفلينة حينما تجذب من الزجاجة ، وصارت تتوقف وتلهث بعد كل بضعة خطوات . وعلى هذا النحو طال نضالهم

(١) ارسغ وارساغ : جمع رسغ « بضم فسكون » وهو الموضع المستدق بين الحافر والوظيف من اليد والرجل . أو المفصل ما بين الساعد والكف أو الساق والقدم ومثل ذلك من الدابة .

حتى أخذ الغسق يقترب .

ولم يكونوا قد بلغوا النهر بعد ...

وكانت الى يسارهم رقعة من ارض اكثر ارتفاعا كثيرة الشجيرات ، فاعتزم الحاج مراد ان يركب الى داخل تلك الادغال وان يبقى هناك الى الليل حتى يريح خيلهم المنهوكة ويدعها ترعى . اما الرجال فقد تناولوا شيئا من الخبز والجبن كانوا حملوه معهم واخيرا اقبل الليل . واختبأ القمر — الذى كان يضىء اول الامر — خلف التل واظلمت الدنيا . وكثرت فى تلك الارياض العنادل ووجد اثنان منها فى تلك الشجيرات . وقد سكنت هذه العنادل طالما كان الحاج مراد ورجاله يحدثون ضوضاء بين الشجيرات . فلما سكنوا بدأت الطيور من جديد ينادى بعضها البعض وتغرد .

ولما كان الحاج مراد متيقظا لكل اصوات الليل اصغى اليها بشكل لا ارادى ، واذكرته زغردتها بالاغنية الخاصة بحمزة التى سمعها فى الليلة السابقة عندما ذهب يبتغى الماء . وقد يجد نفسه الآن فى اية لحظة فى مثل الموقف الذى كان فيه حمزة ، وخال ان الامر سيكون كذلك . وعلى حين فجاة احست نفسه بخطورة الموقف فبسط طيلسانه وتوضأ . ولم يكد ينته حتى سمع صوتا يدنو من مكمنهم . وكان وقع حوافر كثير من الخيل تخوض المستنقع .

وجرى باطة الحاد النظر الى احد اطراف الاجمة وحدق من خلال الظلام فرأى أشباحا سوداء وكانت رجالا على أقدامهم وعلى ظهر الخيل .

وتنبه حنفى الى حشد مماثل فى الناحية الاخرى . وكان اولئك كارجانوف قائد المنطقة مع جيشه المرابط .

فجال فى خاطر الحاج مراد : « هكذا . واذن فسنحارب كما حارب حمزة » .

لقد حدث عندما ضرب انذار الخطر ان اندفع كارجانوف مع شرذمة من رجال الجيش المرابط والقوزاق متعقبين الحاج مرادا ولكنهم لم يقدروا على ان يقفوا له على اثر . وبعد ان فقد الامل وازمع العودة الى مقره لقى حول الغروب رجلا عجوزا واستفهم منه هل راى خيالة هنا أو هناك . فاجاب الرجل العجوز بالايجاب : لقد راى ستة من الفرسان يتعثرون فى حقل الارز ثم رآهم يدخلون الاجمة حيث كان هو نفسه يحتطب . فاستدار كارجانوف الى خلف واستصحب الرجل العجوز ، ولما راى الخيل المقيدة ايقن بوجود الحاج مراد هناك.

وطوق الاجمة بالليل ، وانتظر حتى الصباح لياخذ الحاج مرادا حيا او ميتا .

ولما ادرك الحاج مراد انه قد احيط به ، ولما كشف حفرة قديمة بين الشجيرات قرر ان يخندق فيها وان يقاوم ما بقيت قوته وذخيرته واخبر زملاءه بذلك وامرهم بان يكوموا جرفا امام الحفرة ، واخذ تابعوه يشتغلون من فورهم فى قطع الغصون واحتفار الارض بخناجرهم ويصطنعون خندقا ، وعمل الحاج مراد معهم بنفسه .

ولم تكد الدنيا تضىء حتى ركب قائد شرذمة الجنود المرابطين وصعد الى الدغل وصاح :

ـ « اسمع يا حاج مراد ! استسلم ! فنحن كثرة وانتم قلة » .

وكان الجواب طلقة بندقية ، وارتفعت من الحفرة سحابة صغيرة من الدخان ! واصابت رصاصة فرس رجل الجيش المرابط الذى ترنح تحته وبدأ يسقط . وبدأت تدوى بدورها بنادق الجنود المرابطين الذين وقفوا على تخوم الاجمة وصفر رصاصهم وهمهم يقطع اوراق الشجر والغصون ويصطدم فى الجرف لا فى الرجال المخندقين من خلفه . ولم يصب الا فرس جمزالو الذى شرد عن الافراس الاخر ، برصاصة فى راسه على انه لم يسقط بل قطع قيوده ، واندفع بين الشجيرات ، وجرى الى الافراس الاخر وكبس بالقرب منهم ، وروى الحشائش الجديدة بدمه .

ولم يطلق الحاج مراد ورجاله الا كلما تقدم جندى من المرابطين . وقلما اخطأوا الهدف وجرح ثلاثة من هؤلاء الجنود ، اما الباقون فلم يصح عزمهم اصلا على ان يندفعوا الى الخندق ، بل اخذوا يتقهقرون من خلفهم الى ابعد وابعد يطلقون النار على بعد وخبط عشواء .

واستمر هذا اكثر من ساعة . وعلت الشمس الى ما يقرب من نصف ارتفاع الشجر ، وكان الحاج مراد يفكر فعلا بان يقفز على فرسه ويحاول ان يتخذ طريقه الى النهر حينما . سمعت صرخات رجال كثيرين وصلوا توا . وكان هؤلاء هم الحاج اغا بن المختولى واتباعه ، وكانوا نحوا من مائتين . ولقد كان الحاج اغا يوما من اخوة الحاج مراد فى العهد وعاش معه فى الجبال ولكنه من بعد ذلك انضم الى الروس وكان معه أحمد خان ابن عدو الحاج مراد القديم .

وأخذ الحاج اغا ينادى بالحاج مراد ان يستسلم كما فعل كارجانوف ، وجاوب الحاج مراد برصاصة كما فعل من قبل .

فصاح الحاج اغا وهو يشهر سيفه : «اشهروا سيوفكم يا رجالي!» فارتفع مائة صوت لرجال انقضوا يزعقون بين الشجيرات .

وعدا الجنود المرابطون فيما بين الشجيرات الا أن صريف الطلقة تلو الطلقة كان يأتيهم من خلف الخندق ، فسقط منهم ثلاثة وتوقف المهاجمون لدى تخوم الأجمة واخذوا يطلقون النار كذلك . وبدءوا يقتربون من الخندق تدريجا فيما كانوا يطلقون ويسيرون جريا من خلف شجيرة الى اخرى . وافلح بعضهم فى العبور وسقط غيرهم تحت رصاص الحاج مراد ورجاله : وكان الحاج مراد يطلق دون ان يخطىء وقلما اهدر جمزالو طلقة كذلك ، وكان يصيح من الفرح كل مرة يرى فيها أن رصاصته اصابت هدفها . وجلس خان محمد على حافة الحفرة ينشد « لا اله الا الله » واخذ يطلق رويدا رويدا الا انه كثر ما اخطأ هدفه . وارتعش جسد الدار جميعا لشدة رغبته فى الهجوم على العدو وخنجره فى يده . وكان يطلق كثيرا خابطا خبط عشواء وينظر بلا انقطاع الى الحاج مراد ومتمددا الى وراء الخندق . اما حنفى الأشعث باكمامه المطوية الى اعلا فكان يقوم بعمل الخادم حتى هنا : فكان يشحن بالرصاص البنادق التى كان يناوله اياها الحاج مراد وخان محمد ويوصل فى عناية الرصاص الملفوف فى خلق ذلك الى مكانه بكباس البندقية ، ويصب البارود الجاف من قارورته فى الطاسات ! .

ولم يلبث باطة فى الحفرة كما فعل الآخرون وانما ظل يجرى الى الخيل يسوقها الى مكان اكثر امنا ، يصرخ بلا انقطاع ويطلق دون ان يستخدم لبندقيته دعامة ما ، وكان أول من جرح ، اذ دخلت رقبته رصاصة فجلس يبصق دما ويعرق ثم جرح الحاج مراد وقد اخترقت الرصاصة عاتقه ، فمزق من بطانة مشلحه شيئا من صوف القطن وحشا به الجرح واستطرد يطلق .

فقال الدار المرة الثالثة : « فلنطر اليهم بأسيافنا ! » ونظر من خلف جرف التراب متأهبا للانقضاض على العدو ، الا ان رصاصة صدمته في تلك اللحظة فماد وسقط على ظهره فوق رجل الحاج مراد الذى نظر اليه . وكانت عيناه اللتـــان تحكيان عينى الحمل جمالا تنظران الى الحاج مراد فى امعان واهتمام واختلج دون أن ينفتح فمه الذى مطت شفته العليـا كأنه طفل . وسحب الحاج مراد رجله من تحته واستطرد يطلق .

وانحنى حنفى فوق الدار واخذ يستخرج الذخيرة غير المستعملة

من اغلفة الفشك التى فى سترته .

وفى هذا الوقت نفسه استمر خان محمد يغنى وهو يعبىء ويطلق مستأنيا وجرى العدو من شجيرة الى شجيرة يهلل ويصيح ويقترب فى اطراد .

واصابت الحاج مرادا رصاصة أخرى فى جنبه الايسر فرقد فى الحفرة وسحب مرة أخرى شيئا من صوف القطن من مشلحة وحشا الجرح وكان هذا الجرح الذى أصاب جنبه خطرا فأحس بأنه فى طريقه الى الموت .

وتلاحقت فى خياله الذكريات والصور بعضها فى اثر بعض فى سرعة فائقة . والآن . راى ابا النزال خان الضليع والخنجر فى يده وهو يمسك خده المقدود وينقض على عدوه ، ثم رأى فورونتسوف العجوز الضعيف الفاقد الدم بوجهه الأبيض الماكر وسمع صوته الناعم ، ثم راى ولده يوسف وزوجه صفية ، ثم وجه عدوه شامل الشاحب ذى اللحية الحمراء بعينيه النصف مطبقتين . مرت كل هذه الصور فى ذهنه دون ان تثير فى دخيلة نفسه اى شعور : فلا اشفاق ولا غضب ولا رغبة كائنة ماكانت ، اذ بدا كل شىء فاقد الأهمية بالنسبة لما كاد ان يبدأ اولما بدأ فعلا فى دخيلة نفسه .

ورغم هذا فقد تابع جسده القــوى الشىء الذى كان قــد بدأه . فاستجمع ما بقى من قوته ونهض من خلف الجرف ، واطلق غدارته على رجل كان يجرى اليه من توه « واصابه . وسقط الرجل . ثم خرج الحاج مراد من الحفرة خروجا تاما وعرج فى تثاقل ، وذهب ــ وخنجره فى يده ــ مباشرة الى عدوه » .

ودوت بعض طلقات فترنح وسقط . واندفع عدد من الجنــود المرابطين صوب الجسد الذى سقط وهم يصيحون صيحات النصر .

غير ان الجسد الذى لاح ميتا تحرك فجأة ، فنهض اولا الرأس العارى الحليق الدامى ثم اليدان الممسكتان بأرومة شجرة . لقد بدا رهيبا الى درجة ان أولئك الذى كانوا يعدون صوبه توقفوا فى الحال . ولكن رجفة سرت فيه فجأة فترنح بعيدا عن الشجرة ، وسقط على وجهه ممدد الجسد جميعا كأنه شجرة عوسج اجتثت فاقدة الحراك .

ولم يتحرك ولكنه ما يزال يحس .

فلما طعن الحاج اغا الحاج مرادا ــ وكان أول من ادركه ــ بخنجر فى راسه لاح له أن أحدا يدقه بمطرقة ، ولم يدرك من الذى فعل

هذا ولا لماذا فعله . وكان هذا هو آخر ما وعى عن اى اتصال له بجسده فلم يعد يحس شيئا بعد عنـــدما اخذ اعداؤه يرفسون ويهدمون الشيء الذى لم تصبح له به علاقة .

ووضع الحاج اغا قدمه على ظهر الجثة ، واطاح راسه بضربتين ودحرجها بقدم فى حرص حتى لا تلوث حذائيه بالدم . وانبجس الدم القرمزى من شرايين رقبته ، وتبعه دم أسود من الرقبة بلل الحشائش .

وتجمع كارجانوف والحاج اغا واحمد خان ورجال الجيش المرابط تجمعوا معا ـ كما يتجمع هواة الصيد حول حيوان ذبيح ـ محتفلين بالانتصار بالقرب من جثة الحاج مراد ورجاله (حنفى وخان محمد وجمزالو الذى ربطوه) وبين دخان البـــارود الذى تعلق من فوق الشجيرات .

وبدأت تزغرد الآن من جديد العـنـــادل التى كانت امسكت عن تغريدها ما استمرت الطلقات ، بدأ أول الأمر عندليب دان ثم عنـــادل اخرى بعيدة فى أجواز الفضاء .

لقد كان هذا الموت هو الذى أذكرتنى شجرة العوسج التى سحقت بين الحقل المحروث .

« تمت »

٢٠ قرشا

هذه الرواية

هذه الرواية من اجمل ما كتب تولستوى ، انها قصة بطولة رجل من فرسان القوازق الذين دافعوا عن روسيا بدمائهم وحرروها من البولنديين ، وكانت النتيجة ان اضطهدتهم الدولة وطاردتهم واذلتهم لمجرد انهم مسلمون . ان الحاج مراد رمز عل البطولة الاسلامية وشرف المسلم الذى يخدم وطنه ويقوم بواجبه ويحافظ عل راسه مرفوعا عزيزا ... لقد ظلمت روسيا اولئك الناس اذ اذلتهم ثم شردتهم فى نواحى سيبريا .. وهذه القصة تحكى ملحمة الحاج مراد ، ذلك البطل الباسل الذى وهب نفسه لقضية بلاده . لقد كتبها تولستوى بكل صدقه واخلاصه ، ولم يحبها الروس فى العصر القيصرى لانها كشفت عن مخازيه ولم يحبها الروس فى العهد الشيوعى لانها بينت ان ستالين كان متعصبا مسيحيا روسيا على اسوا صورة يتصورها البشر ، ولكن لينين يمضى فى اذهان البعض وكانه مثل لابطال حرية الفكر ..

ان الحاج مراد روايه ينبغى ان تقرا ، واسلوب مجدى الدين حفنى ناصف فى ترجمتها تحفة ادبية . لم نعد نقرا هذا النثر الصافى . وروايات الهلال يسعدها أن تهدى قراءها هذه التحفة الفنية الادبية البديعة ..